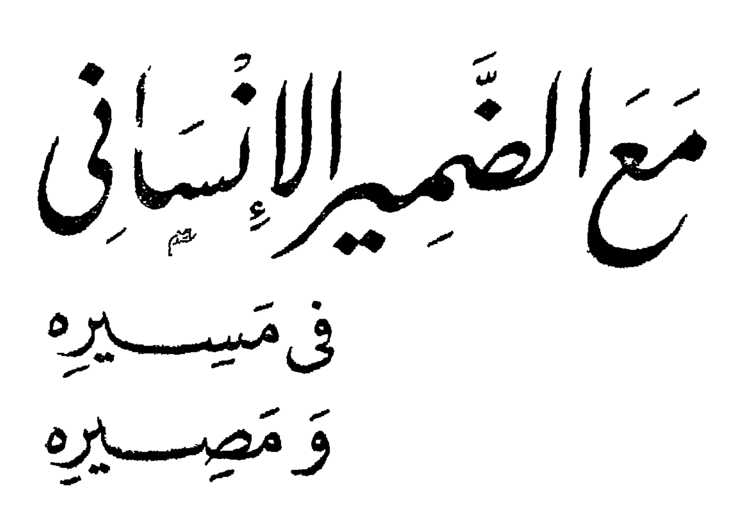
خالد محمد خالد



الطبعة الأولى

أول يناير — ١٩٦٣

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مراجع الكتاب

الفصل الأول

(١) — ماقبل الفلسفة

تأليف : هـ. فرانكفورت و هـ. ا. فرانكفورت وجون ا. ولسن
و توركيلد جاكبسون . ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا

(٢) — فجر الضمير

تأليف : برستد ترجمة : سليم حسن

(٣) — قصة الحضارة — جزء ٢ ، ٣ ، ٤

تأليف : ول ديورانت ترجمة : د. زكى نجيب محمود و محمد بدران

(٤) — الادب المصرى القديم

تأليف : سليم حسن

(٥) — سقراط ، الرجل الذى جرؤ على السؤال

تأليف : كورامبسن ترجمة : محمود محمود

(٦) — إنه الإنسان

تأليف : خالد محمد خالد

الفصل الثانى

(٧) — القرآن الكريم

(٨) — الكتاب المقدس : سفر التكوين — إنجيل متى

(٩) — تجديد التفكير الدينى فى الإسلام

تأليف : محمد إقبال ترجمة : عباس محمود

(١٠) — معالم تاريخ الإنسانية — جزء ٣

تأليف : ولز ترجمة : عبد العزيز جاويد

(١١) ــ معا على الطريق ، محمد والمسيح .

تأليف : خالد محمد خالد

الفصل الثالث

(١٢) ــ العلوم عند العرب .

تأليف : قدرى حافظ طوقان

(١٣) ــ إنسانية الإنسان .

تأليف : رالف بارتون برى ترجمة : سلمى الخضراء الجيوسى

(١٤) ــ أربعة أيام من يوليو .

تأليف : كورنل لنجيل ترجمة : أحمد عبد الرحمن حموده

(١٥) ــ تاريخ إعلان حقوق الإنسان .

تأليف : البير بايبه ترجمة : محمد مندور

(١٦) ــ كوخ العم توم .

تأليف : هربيت بيتشر ستاو ترجمة : منير البعلبكى

الفصل الرابع

(١٧) ــ أساطين العلم الحديث .

تأليف : فؤاد صروف

(١٨) ــ فلسفة الهند ــ سيرة يوجى .

تأليف : برمهنسا يوجا ننداا ترجمة : زكى عوض

(١٩) ــ عند قدمى غاندى .

تأليف : راجندرا برازاد ترجمة : منير البعلبكى

(٢٠) ــ اكتشاف الهند .

تأليف : نهرو ترجمة : دار العلم للملايين

في هذا الكتاب

	صفحة
الفصل الأول — « عَصْر الرُّؤيا »	٩
الفصل الثاني — « في صُحبَةِ النُّبوة »	٨١
الفصل الثالث — « في عصر العقل »	١٦٣
الفصل الرابع — « في عَصر غاندى ، والذرَّة »	٢١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا وَقت عندنا لمقدمة طويلة . ، فإنى لا أُريد أَن أُرجِىء لِقاءكمُ مع الموضوع والكِتاب . .

وإذا كان لابد أن يكون لكل كتاب مقدمة تُعرِّف القارئُ بغَرضه ومِنهاجه ، فدعونى أَصنعْ هذا فى كلمات سريعة

● إن هذا الكتاب يُمثِّل رُؤْية تاريخية لموكب « الضمير الإِنسانى » فى رحلته الجليلة ، منذ بدأ مَسيرَه حتى يومنا هذا . .
رُؤْيةً تسعى إلى استجْلاء الخصائص التى يقود الضمير بها قافلة الإنسان صوْب كمالِها المقْدور ، كما تحُاول استِشراف المستقبل الوْاعِد لبنى الإنسان من خلال التجربة الحيَّة للضمير

● ولَئِن كان ثمَّت ماتعارَفَ الناس على تسميته بـ « الضمير الدولى » أو « الضمير العلمى » أو « الضمير الدينى » أو « الضمير الاجتماعى » — ، فإننا نعنى بـ « الضمير الإنسانى » ما هو أعمُّ من هذا كله ، وأكثر شمُولا

نعنى به تلك البَصيرة التى أفاءها الله على الجنس البشرى فى مجموع أفراده ، وعبقريَّاته ، ورُؤَاه . . نعنى به إرادة التفوُّق

التى تقود بإلحاحاتها النبيلة وحَدْسِها القويم ، جميع العائلة البَشرية لتُعانِق مصيرها الخيِّرَ العظيم

● وبحثُنا هذا يقوم على فَرْض . .

فحوَى هذا الفَرْض ، أن الضمير مَشيئةٌ حيَّة تعمل فينا ، وأنه سبَق العقل فى الظهور وتفوّق عليه ، وأنه بدَأ — يوم بدَأ — رشيدًا واعيا ، كأنما مَعه من الله نور ، وأَن رُؤَاهُ التى هتف بها حتى من ألوف السنين كانت واضِحة الرُشْد ، وأما السَذاجة التى صاحبت وسائل التعبير عَن تلك الرُؤَى ، فلم تكن مِن عمل الضمير — بل كانت من عمل العَقل الناشىء والفكر المُبْتدىء ...

وليس معنى هذا أن الضمير وُلِد كاملا ، وأنه لا ينمو . . كلا ، لقد وُلِد يحملُ رُشده ، ويعرف بطريقة مَّا طَريقه ، ثم هو بعد هذا ينمو ويتكامَل مع الزمان

وقد تسألون : كيف يَنهض بحثٌ كهذا على مجرد فَرض . . ؟ ؟

وأجيبكم : إن « اينشتاين » — كما يقولون — ، قد بنى نظريته فى النسبيَّة على اثنى عشر فرضا لم يكن بينها فَرض

واحد يمكن التدليل على صحته ، ومع هذا فقد أفضت تلك الفُروض إلى نظرية النِّسْبية بكل ما تنطوى عليه من يقين وإعجاز . . ! !

وصحيح أنه لا بد أن يَكون للفُروض أساس منطقى حتى يمكن أن نتوصَّل بها إلى المعرفة واليقين العلمى . . وأقول لكم : إن فَرْضَنا الذى ينهض عليه هذا الكتاب ،له من الجَدارَة المنطقية والتاريخية حظ كبير ، يبدو هذا واضحاً ومُبيناً ونحن نبصر من خلال الرحلة الطويلة للضمير، اتجاهَه الفذّ نحو المصير الإنسانى فى وَحدة ، وتكامُل . . وفى ألمعيَّةٍ لا تكاد تُخطىء ، وتقدير لا يكاد يتعثَّر . . ! !

● ففى « عصر الرؤيا » ، نرى الضمير الإنسانى يستشرف فى حِـــذْق كل رَحِم مكنونة بين البشرية والكَون ، والعالَم .. !!

وفى « صُحبة النبوّة » نرى الوحْى يُزكِّى الكثير من رُؤاه السَّالِفة ، ويمنحه من نور الله ما يشدُّ رُشده ويُثبت خطاه

وفى « عصر العقل » نجد العلم بكل قوانينه ، والإنسانيات بكل جَيَشانِها وبهائها ، يحملان المِشعل لِيُتِمَّا به كلمة الضمير ..

• وفى عصرنا هـذا ، الذى أسميناه « عصر غاندى ، والذرّة » يتمثل فيه كما قلنا فى ختام الـكتاب نهايةُ مَسِير . . وبداية مَصِير ..!!، فيستبين للبشرية طريقها الأوْحد ، ويستكمل الضمير وَحْدته ورُشده

* * *

وبعد ، فقد خرجْتُ من هذا الـكتاب بيقين لا ريب فيه هو : أن الأرضَ لَن يرِثَها دُعاة الفَتْك ، ولا أولياء التخلّف ، ولا حَمَلةُ الـكراهية . .

بل سيرِثُها عبادُ الله الوُدَعَاء . ، بُناةُ الحق والُحبّ . . صانعوا السلام والرحمة . . أوْلِياء الإيمان والعقل .. أصدقاء الإنسان والحياة .

خالد محمد خالد

فى عصر الرؤيا..

ألفى الإنسان نفسه جزءاً من حياة فذّة . تعمل داخل كون لا تنتهى عجائبه .

وفى البيئة القريبة منه والتى تُمثّل عشيرته الأقربين كان يرقب المشاهد فى دهَش

فالماء يجرى . وتجرى الحياة فى أثره

والأرض تهتز بالزرع الطالع . تحمله فى عَناء ، ثم تلِدُه فى حنان . ثم ترعى مع الشمس شبابَه ، حتى إذا جاء ميقاتُه المعلوم أسلمَته قُرباناً للإنسان ، وتلقّفته مناجل الحصاد . . ! !

وتعود الأرض ، فتتلقّى البِذارَ من جديد ، والغِراس . . وتُعاوِدُ كرّتها ، فتحمل ، وتلد ، وتُعطى القرابين

والإنسان . . ما الإنسان . . ؟

إنه كهاتيكَ المواليد من الزرع .

تلده الحياة . وتدفعه الأرحام إلى أبْهاء الوجود ، ثم تلقفَهُ مَناجلُ الموت حين يجىء ميعاده

بينما الحياة فى نشاطها الخالد لا تَنِي . . مواليد فى إثْر مواليد . . ! !

ويرنو ببصيرته إلى البيئة العليا . . هناك فى الأعالى البعيدة . .
عند ذلك السّقف المرفوع فيرى نفس المشهد

الشمس تطلع كل صباح من المشرق، و تَعبُر الآفاق فى رحلتها الجليلة وموكبها الأبدى ، حيث تأوى آخر النهار لمستقرها فتهبط إلى مخدعها ، ويموت يوم . . .

وفى الصباح تعود الشمس ، ويُولَد يوم جديد . والقمر يطلع ذات ليلة على استحياء ، خيطا من الضياء رقيقاً ، وهناناً ، مُقوّساً . . ثم ينمو ويكتمل بهاؤه ، ينسحب من الحياة رُويداً ، رويدا ، حتى يختفى ، ويختفى معه ضياؤه . . إنه يستريح من رحلته المضنية ليعُود ويستأنفها من جديد . . !

والرياح تجرى مُرسَلَة وعاصفة

والرعود ، والبروق ، تروح وتجىء مُذكِّرة ومُنذرة

ما هذه العجائب . . ؟ ؟ وأيّان مُرساها .

كان الناس يَحدِسون ، ويفكرون .

وكان الضمير الإنسانى فى مَقره المستكِنّ يرصُد ويتفحّص ومَن يَدرى . . لعلّه كان أيضاً يتذكر ! !

على أية حال ، فهاهو ذا يبصر فيما حوله من مشاهد الكون

والحياة جلالا واقتداراً

فهل يرهبها . . هل يحبها . . ؟

هل يدنو منها . . ؟أم يُعرض عنها . . ؟

هل يُسْلِمُها سمعه ليسمع هَمْسَها ونجواها ، أم يجعل بينه وبينها سَدًّا . . ؟

الحق ، أنه لم يكن له حق الاختيار . فأين المفر . . ؟!

إنه مهما يهرب من الأرض فإلى الأرض .

أو من الشمس ، فإلى الشمس . .

أو من الحياة والموت ، فإلى الحياة والموت . .

إن خير ما يصنع إذن أن يتعرف إلى هذه القُوى والكائنات وأن يَعرِض عليها صداقته وإخاءه

فلننظر كيف سيمضى الضمير

إن أمر هذه العائلة لعجيب حقاً ! !

العائلة التى تذهلهُ الآن بحركتها إنْ فى الأرض وإنْ فى السماء ، لا بد أن لها عائلا كبيراً ، فإذا أراد أن يتعرف على العائلة كلها ، فلا مَناص من البدء بعائلها وكبيرها ترى ماذا يكون ؟ ربًّا . . أم مَلِكاً . . أم أباً . . ؟

فليكن أى شىء من هذا . .

المهم أن يرحل إليه ويقرع باب داره ، ويقول له : إنى أعرض عليك وعلى كَوْنِك، صداقتى ؛ وصداقة الجنس الذى أُمثله

ولكن أنَّى له هذا الحكم السريع . . ؟ الحكم أن لهذه العائلة أباً وعائلا . . ؟

تلك هى سُنة الحياة كما يراها

فلكل نبتَة خضراء ، زارع يزرعها ويرعاها

وهذا الكوخ ، أو البيت ، له بانٍ بناه

ولكل محراث صانعه ، ولكل حديقة بُسْتانِيُّها

ولكل عائلة من بنى الناس أبوها

فهذا الماء الذى يجرى . . والقمر الذى يبزُغ . . وصاحبة الجلالة « الشمس » التى يتحرك موكبها المهيب كل يوم . وكأنها تستعرض رعاياها . . وهذه الرياح التى تسبَح وتمرح حين ترضى . . وتُزمجر وتُدمِّر حين تغضب .

أليس لها « أبٌ » ولدها . . ؟ أم تُراها ولَدت نفسها . ؟

إنه يستطيع أن يرى وراء كل شىء فى دنياه أباه وصانِعَه .

فمن هو « الأب » الذى ولدهذه القُوى . . ؟ ومن البارىء الذى خلق وسوّى . . ؟

لكنْ ، هذه الشمس

وكذلك القمر ، والريح ، والسماء ، والأرض ، والنهر ، والبروق بقوتها الخارقة ، وحركتها الدائبة ، وطاقتها العارمة وسرّها المخبوء

أتُشَجِّع على الاقتراب منها فضلا عن عقد أواصر الصداقة معها . . ؟!

إنها عوالم أخرى لا تمُتُّ للإنسان بصلة . .

عوالم أخرى . . ؟؟؟

كيف . . ؟ وهى جزء من حياتنا ، وحياتنا جزء منها . إننا جميعاً نولَد . . ونموت . . ونبعث

كلنا . . الشمس ، والقمر ، والزرع ، والإنسان ، والحيوان .. إن هذا ليُشجِّع على أن يكون بيننا وبين هذه القُوى إلافٌ وزمالة

صحيح أنها رهيبة ، ومُحيِّرة ، وتشِعُّ منها قداسة عُلْوية .

بَيْد أنّ صداقتها رغم هذا كله . هى خير سبيل لفهمها ، وتجنُّب بأسِها .

وإذْ كانت الصداقة بين صغير وكبير . . بين الإنسان الضعيف وبين القُوَى التى يبدو أنه مَدين لها بحياته وبقائه . فستأخذ من أجل هذا طابع التقديس والعِبادة . .

وأى بأس . . ؟ ؟

نعبُـدها ؟ ؟ ليـكن ذلك وهـل العبـادة إلا التوقير فى مستوًى أعلى

ولماذا لا نُوقِّرها ، وهى — فيما يبدو — أهل لكل توقير ؟ !

هكذا — فيما نحسب — كان حديث الضمير مع نفسه فى فجر حياته

إنه يقترب من أفراد العائلة المقدسة جميعاً ، ويعطيهم حبه وصداقته وتقديسه .

وإنه لشىء باهر حقاً ، أن يبدأ الضمير عمله بعقد صداقة بين الجنس البشرى والـكوْن بأسْره . .

إن كثيراً من المؤرخين ، وفلاسفة التاريخ الذين يقفون عند هذا الشُّروق للضمير الإنسانى لا يرون وراء عبادة تلك القُوى سوى التخبُّط والخوف

أما نحن ، فدعْنا نذهبْ إلى الرأى الآخر . . دعْنا نقُل في غير مُغالاة : إن الضمير الإنسانى كان يعرض صداقته على الكوْن لكى يطمئن إليه ويفهمه جيداً

وكانت طقوس العبادة التى ترك الناس يمارسونها يومذاك . شعائرَ هذه الصداقة الكونيّة المبكِّرة

صحيح أنه سيكون ثمت تخبُّط ، بيد أن التخبط سيكون فى الأشكال والطقوس ، لأنها من عمل العقل واختراعه أما « الرؤيا » نفسها . . أما « الجوهر » ذاته ، فأمر عظيم باهر العظمة . . هـــذا الذى تُحاول حضارتنا اليوم فى ذروتها أن تصنعه . مُصالحة الكون وفهمه . . ! !

إن « الفكرة » ذاتها من وحى الضمير وعمله

أما تنفيذها فمتروك للعقل . . والعقْل يومئذ رغم مهارته فى الحضارة العمرانية والعلمية ، فإن قدرته على التخطيط الروحى كانت محدودة وقاصرة

من أجل ذلك ستجيء وسائله فى التعبير عن رُؤى الضمير ساذجة وغريرة

وهو تبدو ساذجة وغريرة اليوم ، بعد خمسة آلاف سنة

من حدوثها . . وبعد أن نخلعها من إطارها الزمنى ، ونخرجها من بيئتها التاريخية ، ثم ننشرها اليوم تحت أعيننا ، ونقيسها بمقاييسنا العقلية فى القرن العشرين . . تلك المقاييس التى أثمرتها تجارب خمسة آلاف عام ، لم يكن منها مع العقل الإنسانى يومذاك شىء ! !

* * *

لقد اتجه « الضمير الإنسانى » إلى مؤاخاة الكون فى ذلك المطلع البعيد . . وأملَى على قُوى الذهن مشيئته

ولسوف نجد « جوهر » هذا الاتجاه موجودا يومذاك فى كل مكان يوجد فيه بشر متحضرون .

سنراه فى مصر القديمة . . وسنراه فى أشور . . وفى بابل . . ولكن ستختلف وسائل التعبير باختلاف طبيعة التفكير فى كل بيئة وبلَد .

* * *

والضمير وهو يُحسُّ الحاجة لهذه العلاقة وهذه الصداقة ، ثم ، وهو يُضَمِّنُها أعلى درجات التوقير ، وهى العبادة ، لا ينسى — وحقاً لكم كان فى هذا باهراً — نقول

لا ينسى أن يقيم هـذه العلاقة على التوقير المتبادَل ، والتكافؤ الملحوظ

فحين يخلع على هـذه القُوى السيادة والألوهة ، سنراه يخلعهما كذلك على الإنسان

وإذا كان الإنسان سيتجه بالعبادة والتقديس لقُوَى الـكون هـذه ، من شمس وكواكب ، وماء وأرض ، فى صورة ابتهالات وقرابين ، فإن هذه القوى نفسها ترد إلى الإنسان التحيَّة بأحسن منها ، وذلك بعملها الدائب فى سبيل حفظ حياته واستمرارها

بل إن هذه القُوى لهى البادئة بتحيَّة الإنسان ، وذلك بعملها من أجله منذ مجيئه الأرض ، وقبل مجيئه . . ! !

إن الضمير يُحيِّى هذه القُوى إذن ويُحيِّى الإنسان معها
إنه يُحيِّى أصدقاءه الجدُد المعظمين

فليكونوا إذن سادة ، وليكونوا آلهة ، وليكن الإنسان عضواً فى أسرة الآلهة

ترى ، لماذا ما دام « الإنسان » موضع تكريم ـهذا

الضمير ، لم يضع الضمير صفة « الإنسانية » مكان صفة « الألوهية » . . ؟

لماذا لم يُسَمِّ هذه القُوى العظمى « أناسِىّ » بدلا من « آلهة » . . ؟ ؟

إن فى هذا لبرهاناً آخر على صدق حسّ هذا الضمير

إنه مع تقديسه نوعَه الإنسانى ، لا يرى فى الإنسان ولا فى الإنسانية كلها حلّ اللغز الخفى الكبير الذى يحيط به ويُحيِّره . . إن الإنسان جزء من اللغز ، لا أكثر

فالإنسان ، ليس هو الذى أنشأ الأرض التى تخرج الزرع والثمر ، وتحمل على ظهرها الناس والأنعام . . .

والإنسان ليس هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم . .

والإنسان ليس هو الذى خلق المياه التى تَلِد الحياة والأحياء

فلا بد من وجود قوة أعلى

أنُسمّى هذه القوة « إنسانية » . . ؟ ؟

كيف ؟ والإنسان مجرد مظهر من مظاهرها ، وآية من آياتها . . ؟ إنها شىء أكبر . .

إنها « الآلِهة » . .

* * *

ولكن إذا كُنا جزءا من هذا اللغز الكبير . من هذا الكون العظيم ، فلماذا لا نبقى بقاءه . . .

إن النهر يموت . ولكنه يحيا وتتجدد حياته عند الفيضان كل عام ، فالموت بالنسبة له غياب عارض ، والخلود هو القاعدة . .

والشمس تموت كل يوم فى الغرب ، وتقضى الليل كله فى بَرزخها الروحى ، لكنها تعود للحياة كل صباح ، فهى خالدة . .
والأرض تموت حين تقفر من الزرع وتبقى هامدة . . لكنها تعود إلى الحياة فتهتز خضرة وبهجة وعَطاء ، وهى إذن خالدة . .
والنجوم تموت فى النهار ، وتُولد فى الليل

وهكذا تبدو الحياة حركة دائبة يتناوَبُها الوضوح والخفاء والحضور والغياب

وإذا كان الغياب يعنى الموت ، فان الموت كذلك لا يعنى شيئاً سوى الغياب

وما دام كل شىء يموت ويحيا ، يغيب ويعود ، فالإنسان

ليس بمعزل عن هـذه العملية الـكبرى التي تحتضنها ديمومة ليس لها منتهى

إنه إذن لا يخضع لفناء نهائي مطلق

بل إن له لَبَعْثا وَوِدة بجسده ونفسه ، أو بنفسه في جسد جديد

المهم أن الموت ليس إلا اللّيل الذي يخترم طريق حياة الإنسان — أي إنسان — وسيعود الموتى إلى الحياة ، أو تعود إليهم الحياة ، فوراء كل ليل صباح

هناك إذن « كَوْن » ، والإنسان جزء منه

هناك إذن « أُلوهة » ، والإنسان جزء منها

وهناك إذن « خلود » ، والإنسان جزء منه

وكما ذكرنا من قبل ، لن تقتصر رُؤى الضمير الإنساني هذه على بلد دون آخر

بل سنلتقي بها في العالم القديم كله

في مصر القديمة . . وفي أشور . . وبابل . . وفي الهنـد والفرس ، وأثينا .

ولن يكون ثمّت تباين إلا في وسائل التعبير عنها

والآن ، فلننظر كيف سارت التعبيرات الإنسانية عن هذه الرؤى والكشوف خلال المسلك المتباين والتطبيقات المختلفة فى تلك الحضارات القديمة

وبتعبير آخر ، لننظر « عمل الفكر » تجاه « رؤى الضمير »

على أنه لا ينبغى لنا الظن بأن الفكر سيعمل بمعزل تام عن الضمير فى هذه القضايا وفى سواها من القيم التى سيوالى الضمير كشفها . . إنهما يعملان معاً فى تفاهم وثيق

بيد أن الضمير وهو يتابع كشوفه ورؤاه ويلتقى انعكاساتها المتجددة عليه ويحتضن نموها المتزايد فى داخله . . إنما يفعل ذلك فى حدود علاقته بجوهر الحقيقة لا بأشكالها . .

فهو مثلا يحس الألوهة مجرد الألوهة هذه القوة التى تتمثل فيها ، وتنطلق منها كل طاقات الحياة

ولكن هل هذه الألوهة مشخصة أم مجردة . . واحدة أم متعددة

إن الفكر سيمضى فى تفسير ذلك كله وفق تجربته ، فتارة يشخصها وتارة يجردها . . ومرة يبثها فى قوى الكون .

وأخرى ينقلها إلى الأوثان والكهنة

والضمير فى نفس الوقت ماض يوالى استجلاء رُؤْياه ، وحَدْسِه

فبعد حين يشرق فى باطنه جزء آخر من الألوهية تتمثل فى هذا الجزء وحدانية الإله . . وهكذا يمضى سَنَنُه ونهجه تجاه كل كُشوفه ورُآه

ولعل سؤالا يواجهنا الآن :

— أين كان الضمير من هذه الغَزارَة الفكرية المُتبدِّية فى تعبير الفكر عن رُؤاه

ولماذا لم يرسم الضمير للفكر الأسلوب السّوىّ والمنهج الصحيح

وإذا كان قادراً على استشراف الحقائق ، وكشف القِيَمَ وامتلاك « الرؤيا » التى يستطيع أن يتعرف بها إلى جوهر الأشياء فلماذا لم يستعمل مواهبه تلك فى هداية الفكر إلى التعبير السديد . . ؟؟

والجواب فيما نرى يتلخص فى :

أولا : أن الضمير الإنسانى لا يعرف كل شىء ، وهو وإن

يـكن يمثل « العقل الأعلى » فإن المجهول لا يتكشف له إلا بقدَر ،وفى ميقات .

ثانيا : أن الضمير الإنسانى يدرك أن فعالِيَّة الإنسان كامنة فى قدرته على الحركة الحرّة . والاختيار الطليق وهو لهذا لا يحدّ من حركته ولا يتحكم فى اختياره ، فإنه لو فعل يكون قد وضَع فى طريق نُموّه العقبات

إن كل نمو يُحرزه العقل والفِكر لَخيرٌ مِعوان للضمير على بلوغ أغراضه ، وتحقيق إرادته

وإذا كانت الحرية شرط نمائه ، فإن الضمير الإنسانى لن يكون بحاجة لإدراك أن الخطأ الذى يجىء معه النُّمو خير من الصواب الذى يُخيِم معه العجز والإخفاق

* * *

والآن ، فهاهو ذا الكون القريب من الإنسان يموج بالآلهة

فالهواء إله ، اسمه « شو »

والأرض إله ، اسمه « غب »

والسماء إله ، اسمه « نوت »

والشمس إله ، اسمه « رَع »

وسيخطو الضمير خطوة يتعرف فيها إلى رَب هذه الأسرة الكونية كلها

فليكن هـذا الإله « رع » فى مصر ، أو « مَرْدُوك » فى أشور أو « براهما » فى الهنـد

وليتصوّر الفكر الأسطورى الآلهة على النمط الذى تمليه عليه خبرته وسذاجته فى كل مكان من ذلك العالَم البعيد .

إن ذلك جميعه ليس أكثر من تنوُّع للصورة ، وتعبير عن رؤيا الضمير

وخلال هـذه التعبيرات جميعاً علينا ألا تشغلنا الكلمة عن « الفكرة » ولا الشكل عن « الجوهر » ..

ويتساءل الضمير .

ما مكانُ الإنسان من الإله فى حركة الحياة كلها ؟

وما منزلة الناس لدَى هذا الإله . . ؟

وتجيب الأسطورة المصرية القديمة قائلة :

« لقد صنع — الإله — السماء والأرض حسب مشيئتهم

وصدَّ وحْش المياه ، وصنَع نفَس الحياة لخياشيمهم . .

إنهم صُوَرٌ له انطلقت من جسده »

النـاس إذن صور الإله انطلقت من جسـده حسب التعبير القديم

وبتعبيرنا الحديث اليوم الذى يُقره الدين ذاته — تصبح العبارة القديمة هكذا — « فى الإنسان ألوهة »

كذلـكم كان العراق القديم فى ذلك الزمن البعيد حين يريد تحصين نفسـه ، يهيب بقوى الأُلوهة الكامنة فيه فنراه يقول :

« إنليل رأسى — وكان إنليل فى تفـكيرهم إلاها —

« والنهار وجهى

« وأوراش الإله الفذ ، هو الروح الحامية التى تهدى خطاى

« عُنقى قلادة الإلاهة تنليل

« وذراعاى منجل الإله الغربى

« وأصابعى من عظام آلهة السماء »

على أنه لم يكن الإنسان وحده مَجْلى الألوهة . . بل كل أشياء الطبيعة وذرّات الحياة .

فما نعدّه اليوم من عالَم الجماد أو النبات ، كان يومذاك

طاقة إلاهية تنطوى على أسرارها البالغة — فالبوص مثلا ، عند أهل الرافدين ، وقبل الميلاد بثلاثة آلاف عام ، لم يكن مجرد « بُوصْ » . . لم يكن مجرد نبات . . بل كان يتضمن إرادة إلاهية ، وقدرة إلاهية هى التى تجعل « البوصة » تصدح بالنغم الحلو حين تسكون « نايًا » ، وهى التى تجعلها تنشر الحكمة ، حين تتحوَّل إلى « قلَم » . . !!

والمِلْح — مثلا — يتضمن نفس الإرادة والقوة .

من أجل ذلك ، كان « الأشورِىُّ » القديم يُناجيه حين يُلم به مرض فيقول :

« أيها الملح

« حُلَّ عن العقدة . .

وكخالِقى ، أرفع المجد والتسبيح لك . . »

والقمح — مثلا — فيه ألوهة . ومن ثم فهو يصلح قربانا وسفيراً بين الإنسان والإله .

من أجل ذلك فحين يقدمه البابلى القديم قربانا للإله ، يستقبله فى خشوع ويناجيه قائلا .

« إنى أرسلك إلى إلاهى . .

« فقد امتلأ قلبه سُخطا علىّ . .

« أصلِح بينى وبينه ... »

* * *

وتظل فكرة الألوهة تتبلور وتتحدد فى مصر القديمة تحت ضغط الضمير ودفعه ، حتّى نراها تفقد رويدا رويدا الكثير من تنوعها وتشكيلاتها .

إن الألوهة فى حسِّ الضمير أكثر جلالا ووحدانية من تلك التشكيلات التى أقامها الفكر ، سيما عندما دخَل الكهنة الميدان ، وارتبطت مصالحهم المادية بالدين ، ومن ثمّ فالضمير وهو يتابع سيره يعكس على الفكر رؤاه فنرى الرغبة تسير فى اتجاه التوحيدمبتدئة بثالوث ، منتهية إلى الوحدانية ، وهناك نلتقى بهذه النصوص .

« كل الآلهة ثلاثة ، آمون ، ورَع ، وبتاح ، ولا ثانى لهم»

إن عبارة « ولا ثانى لهم » لتدل على أنهم يجعلون الثلاثة واحدا .

وفى الفصل التالى نجد هذا المعنى فى وضوح أكثر .

« هو الواحد : آمون ، ورع ، وبتاح — ثلاثتهم معا » .

إن تنوع الظواهر وسلطانها ، أتاح الفرصة يومئذ لتنوع الآلهة وتكاثرها .

ولكن وحدة الكون . التي كان الضمير يحسها جيدا ، ويدعو الفكر إليها . كانت تلاشي شيئا فشيئا تأثير هذا التنوع على الفكر ، وتدعوه إلى الوحدة .

وهكذا تركزت الآلوهة فى ثلاثة — آمون ، ورع ، وبتاح ، شريطة أن يكونوا معا إلها واحدا .. ولكن كيف يكون الثلاثة واحدا ..؟

إن كل شيء ممكن فى سبيل الوصول إلى « الواحد » .

وهكذا يمضى النص فيقول .

« هو الواحد : آمون ، ورع ، وبتاح — ثلاثتهم معا

« آمون هو الإله ، ورأسه رع ، وجسمه بتاح »

هنا نلتقى بسذاجة التعبير ، والشكل الخارجى لفكرة تناهت من حيث جوهرها فى السمو والنبوغ .

وتجىء الخطوة التاليـة فى التوحيد الحاسم حين يجىء « اخناتون » .

إن « اخناتون » واحد من الأفراد الذين يختارهم الضمير

أحيانا ليقوموا بعمل جيل أو أجيال .

فيومذاك ، وقبل الميلاد بسبعين وثلاثمائة وألف عام يوجه أخناتون كل سلطانه كمَلِك ضد التعدد الذى رآه شِركا .

لقد واجه بأس الكهنة وضَراوة التقاليد الدينية للشعب كله بعزم فذّ .

وراح يهدم ويحطم جميع مَجاثِم الأصنام ، ويُلْغى بجرة قلم جميع طقوسها وشعائرها ، معلنا أن « آتون » هو الإله الواحد الأحد ، وليس هناك إله آخر معه ولا إله آخر سواه .

ولكن ما هذا الإله آتون .. ؟

إنه القوة اللانهائية .

إلى هنا وقضية التوحيد تمضى على أحسن مايرام .

لكن الفكر لم يخلص بعد من شوائبه ، ولا تزال الشمس صاحبة أعظم سلطان على الأفئدة .

وإذن فلتكن هذه القوة اللانهائية حالة فى الشمس .

وليكن « آتون » إذن هو الاقتدار الهائل الكامن فى الشمس .

وبمعنى آخر . إذا كان لا بد أن يكون للاله الواحد

رمز فليكن رمزه الشمس .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان عمل « اخناتون » هذا الذى تمّ لحساب الضمير الإنسانى كله . . نقول كان وثبة فى تاريخ قضية الإيمان والتوحيد .. والآن ، فلنتعرف إلى الإله الواحد « آتون » من خلال صفاته ، كما نراها فى الابتهالات والأناشيد التى وضعت يومئذ لمناجاته ودُعائه .

« أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء

« أنت يا آتون الحى الذى كنت فى أزليّة الحياة

« فحينما كنت تطلع فى الأفق الشرقى كنت تملأ كل البلاد بجمالك

« أنت جميل وعظيم ومتلألىء ومُشرقٌ فوق كل أرض

« وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك

. . . .

« أنت خالق الجرثومة فى المرأة

« والذى برَأَ من البذرة بشَرا

« وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه

. . . .

« ما أكثر تعدد أعمالك

« إنها على الناس خافية

« يا أيها الإله الأحد

« الذى لا يوجد إلى جانبه إله آخر

« لقد خلقت الأرض وفق مشيئتك

« وحينما كنت وحيدا ، لا شىء معك

« خلقت الناس والماشية والغزلان

« وجميع ما على الأرض مما يمشى على رجليه

« وجميع ما فى أعلى ، مما يطير بأجنحته »

* * *

وهنا وقد تجلت الألوهية بكل سلطانها فى إله واحد أحد ، يظل الإنسان آخذا مكانه فى دائرة الألوهة كذلك ، فهو موضع رعاية الإله . . بل هو « ابن » الإله ، ففى هذه الأنشودة نفسها نرى هذه الابتهالات .

« إن جميع الناس . سوّيت وجوههم

« لكى لا ترى نفسك بعد وحيداً

« إن ابنك اخناتون يعرفك

« فقد جعلته عليما بمقاصدك وقوتك »

وفى تشبيه آخر يبتهل فيه اخناتون إلى الإله الأحد، فيقول :

« أنت تشرق بجمالك يا آتون الحى يارب الأبدية

« إنك ساطع وقوى وجميل

« وحبك عظيم وكبير

. . . .

« كلُّ ما خلَقته يطرب أمامك

« ويفرح ابنك الجليل وقلبه فى حبور »

ولئن كانت صفة البُنُوّة قد تكررت . مختصا أخناتون بها نفسه ، فإن ذلك لم يكن يعنى نفيها عما سواه . ففى نفس هذا النشيد نلتقى بهذه الفقره

« إيه أيها الإله الذى سوّى نفسه بنفسه خالق كل أرض ، وبارىء مَن عليها

. . . .

« وأنت الأب والأم لكل مَن خلَقه »

* * *

وبعد ، فغداً يذهب « اخناتون » وتقتلع ثورة عارمة

كل توحيده ونظامه ، وتعود الآلهة والمعابد والـكهنة . . ولـكن كل ذلك لا يُجدى ، فقد ظهرت قضية التوحيد فى الوجود الإنسانى كحقيقة ناجحة ، ولقد رفع الضمير رايتها حيث لا تستطيع يد أن تنالها ، وستظل فى مـــكانها تذكِّر الغادين عَـبْر الأجيال بالإله الواحد الأحد ، حتى يجىء عصر النبوّات ومعه اليقين

* * *

وتدعَم وحدة الـكون نفسها فى حركَة الفـكر ، ولا يُـكتفى يومذاك بالوحدة المعنوية . بل تُخلَع عليها وحدة « بيولوجية » فتقول الأسطورة فى مصر القديمة

« كانت السماء مضطجعة على الأرض ، ثم انفصلت عنها » . . أى أن السماء والأرض كانتا كتلة واحدة

أما كيف تم هذا الفِصام

فتقول الأسطورة : إن إله الهواء « شو » رفع السماء بذراعيه القويتين ، وبقى ناهضاً كأعظم عمـلاق قائماً بين السماء والأرض

وتتضح الوحـدة البيولوجية أكثر فى رُؤياهم أنّ كل

شيء خُلِق من الماء ، فالماء أصل الحياة وأصل الكون

وهذه الوحدة الكونية تعكس آثارها على الإنسان بصورة تدعم بها نفسها في شعوره وتفكيره

فقد اعتقدوا يومئذ أن كل فرد إنساني مرتبط ارتباطا وثيقاً بحركة الفصول الأربعة وبحركات الكواكب والنجوم . . في كل شئون حياته من مرض وعافية ورزق وحظوظ وموت . . ! !

ووحدة الحياة كوحدة الكون . .

فكل الكائنات الحية على الأرض أسرة كبيرة ؛ لأن الإله خالقهم جميعاً

وإذا كانت العبادة هي أسمَى أعمال الإنسان وأرفع واجباته . فإنها يومذاك لم تكن شرفاً للإنسان وحده . . بل وللحيوان أيضاً

فالأنشودة التي يبتهلون بها إلى الإله « رَعْ » تقول

« القِردَة تعبده . .

« والحيوانات كلها تقول بصوت واحد : الحمد لك » . . ! !

* * *

والحق أن تركيز الضمير على وحدة الكون كان عظيما وأكيداً

لكأنه كان يحس أن كل مغانم المصير الإنساني مرتبطة بإدراك هذه الحقيقة والعمل وَفْقها

وفي استجابة الفكر لإلحاحات الضمير هذه ..، نراه يُثابر على توسيع اقتناعه بهذه الوحدة وتنمية مفهومها ، حتى يُتاح له يومذاك أن يرد عناصر الكون كلها إلى جوهر واحد ويرى إمكانية أداء عنصر ، وظيفة عنصر آخر . . ! !

ولْندَع كتاب « ما قبل الفلسفة » يحدثنا فيجلو لنا هذه النقطة

« . . وأول دليل على أن عناصر الكون من جوهر واحد هو مبدأ التبادل . فقد كان من السهل على العنصر الواحد أن يحل محل العنصر الآخر

فالميت يريد خبزا لكي لا يجوع في العالم الآخر ، فكان يقوم بسدّ حاجته هذه بضروب أخرى من الخبز . . فيصنع من الخشب أرغفة ، توضع معه في قبره »

« وللآلهة عندهم أبدال آخرون ، فإن ملك مصر ،

وهو أحد الآلهة ذو طبيعة متحولة تجعل فى وُسعه الاندماج مع أقرانه الآلهة حتى يصير واحدا منهم ..

« والمصريون فى هذا ، لم يفرقوا بين الرمزية والمشاركة « فإذا قالوا : إن الملك هو الإله حورس ، لم يقصدوا بهذا أن الملك يلعب دور « حورس » بل يقصدون أن الملك هو « حورس » بالفعل .. وأن الإله حورس موجود فعلا فى جسد الملك طوال فترة النشاط المعيّن الذى يتطلب حلول الإله » . . ! !

* * *

ولقد كان الأمر كذلك فى بابل ، وكانت تذهب فى وحدة عناصر الكون وردها إلى جوهر واحد ، نفس مذهب الفكر المصرى ، وتعبر عنه فى أشكال مُماثِلة

وسنلتقى برؤيا الضمير الإنسانى عن الألوهة ، ووحدة الكون ، والخلود بعد ذلك فى الهند ، والصين ، وأثينا ، وفارس كل يعبر عنها وَفق تجربته وتفكيره

* * *

تُرى ماذا كان الامتداد الطبيعى لِرُؤَى الضمير .. ؟

لقد تمثل هذا الامتداد فى رؤياه عن العلاقات التى يفرضها وجود هـذه الحقائق

فاذا كان ثمت إلاه ، وخـلود ، ووحدة بين عناصر الـكون وقُواه : فـما هو الأسـلوب الذى يَجْمُل بالإنسان أو يتحتم عليه أن يُعامل به هذه الحقائق .

وهكذا نلتقى بالضمير ، وهو يستشرف « العلاقات » التى سيُفاعِل بهـا الإنسان وجوده مع الألوهة ، ووحـدة الـكون ، والخلود — أو بتعبير أصح ، يستشرف « جوهر » هذه العلاقات .

نلتقى به وهو يُشير القِيَمَ والأخـلاقيات التى ستَبُثُّ التَّماسُك وإرادة الصعود فى الصفوف البشرية ، وسيبلغ فى تقديسه لها الحد الذى نراه يخلع عليها أو على أمَّهاتِها ألوهة وتقديساً يتبدَّيان فى عمل الفـكر حين يجعل العدالة إلها اسمه « ماعت »

لقد تجلَّت الحياة عظيمة أمام الضمير الإنسانى ، فسأل نفسه : ما أغراضُ هذه الحياة . . ؟

ثم مضى فى سعيه النبيل ، وارتياده المستبسل يبحث فى طريق الحقيقة عن الجواب .

ولسنا نزعم أن أغراض الحياة جميعا قد استبانت للضمير مرة واحدة فى ذلك العهد السحيق .

وإنما استطاع يومذاك أن يدرك منها ما يكفى لأن يتصور الناس به جلال الحياة ويصوغوا مسعاهم وسلوكهم وَفق هذا التصور وهذا الإدراك .

ولعلّ مُبْتَكر الأمر كله تمثّل لدى الضمير فى اكتشافه مسئوليات الإنسان وكيف يعيشَ « مُواطنا صالحا » فى كوْن الله . . .

ذلك أن الضمير الإنسانى لم يتصور يوما أن فى هذا الكون الرحيب فراغا ، أو أن فيه سَلبيّة وبِطالة .

فهو ممتلىء بالحركة العامرة بسر الألوهة . . وكل شىء فيه يعمل ، إذْ له دور يتحتّم عليه أداؤه .

وللانسان كذلك دوره الكبير العارم ، فكيف يؤديه

إذا كان هناك وحدة كونية تربط الكائنات جميعها بعضها ببعض . فإن هناك لا ريب وحدة إنسانية تجعل الإنسان للإنسان صديقا وأخا .

وإذن فأول ما يتحتَم تَوفرُه لتستطيع البشرية أداء دورها

هو هذا الانسجام بين أفراد النوع كله . . تماما كذلك الانسجام القائم بين كل أشياء الكون — أرضه وسمائه .

إنه تقديس الرَّحِم الإنسانى . . القرابة الإنسانية التى تتيح للجنس البشرى أن يضع التعاضُد مكان التخاذُل ، والحُب مكان الكراهية ، والإقناع مكان الخنجر . .

ولكن كيف تحيا هذه الرَّحِم . . ؟
كيف يَجد الإنسان أخاه بدلَ أن يَفقده . . ؟
كيف تهزم القَرابَةُ القطيعة . . ؟
إن الضمير يعرف — ولسوف يجيب .

وهو خلال بحثه عن الجواب سيكشف لنا العدل ، والحب ، والصدق ، والتضحية ، والشجاعة ، والأمانة ، والحرية ، والكرامة وسواها من أخلاقيات التقدم الإنسانى وضروراته .

وسيتخذمن تقديس الاسرة دائما وسيلة لتدريب كل فضائل المحبة والصداقة .

فمادام الإنسان مفطورا على حب نفسه ، وأبويه ، وإخوته ، وأقربائه ، فإن كل تنمية لقوة الحب داخل هذه الدائرة — دائرة الأُسرة والعائلة — تهيىء للحب فيما بعد فرص الانتشار

العظيم ، حتى ينال الناس جميعا . .

وهو كلما تمَّ له اكتشاف فضيلة تبنَّاها وخلَع عليها من الحتمية والقداسة ما يزجُر كل تفريط فيها أو عُدوان عليها .

وإنه ليُنذر أفراد النوع الإنسانى سلَفاً ، بأنهم لن يستطيعوا أن يحترموا هذه الأخلاقيات فى العلَن ويخونوها فى السِّر

ذلك أن فى كيان كل فرد وتركيبه ما يكشف خَبْأه ويُعلن طويَّته سيَّما أمام الله الذى يسمع كل شىء ويراه

ومع كل فرد — كما سيصوِّر الفكر — قرين، يسمى ال « كا » يحصى أعماله ، ويسمع هواجس نفسه ، ويُبصر خائنة عينه . .

وكل إنسان مسئول أمام الله ، وأمام ال « كا » .. هذه الروح الحالَّة فيه أو اللاَّصقَة به

وفى تلك البدايات المبكرة والقوية أيضاً ، نَجد الضمير يركِّز على العدل وتكافؤ الفرص تركيزا كبيراً

فحين نطالع حركة الفكر المصرى القديم ، والفكر الأشورى والبابلى نجد الكلمات كلها صدَّاحة بالعدل ، سيَّما فى مصر حتى لكأنَّما تراءى لهم العدل يومئذ ، وكأنه دون سواه أو على الأقل قبل سواه ، القانون الذى تقوم به السماء والأرض

وإن كل شعيرة وقربان ليفقدان مع الظلم قيمتهما

يقول الفكر المصرى القديم

« إن فضيلة الرجل المستقيم ، أحب إلى الله من ثور الرجل الظالم — يعنى قُربانه — »

« إن العدالة خالدة الذكرى ، فهى تنزل مع من يقيمها إلى القبر ، ولكن اسمه لا يمحى من الأرض »

ونبضات الضمير يترجمها الفكر فى آيات مشرقات نلتقى بها فى تعاليم أمنموبى، وبتاح حتب، وكاجنى، وغيرهم من حكماء مصر الأقدمين

« احذر أن تسلب فقيراً بائساً

« وأن تكون شجاعا أمام رجل مهيض

« ولا تجعلن نفسك رسولا فى مهمة ضارّة »

* * *

« لا تزحزحن الحدّ الفاصل بين الحقول

« ولا تطمعن فى ذراع أرض

« احذر ربّ العالمين

« ولا تعتدينّ على حرث آخر

« إن المكيال — الواحد — الذى يعطيكه الله ،

خير من خمسة آلاف تكسبها بالبغى

« وأرغفة تكسبها بقلب فرح

« خيرٌ لك من ثروة مع شقاء »

والعدالة الاجتماعية التى تجعل الناس سواء فيما رزقهم الله من فضله ، هى الشغل الشاغل يومذاك للضمير والفكر وإنا لنعجب ! كيف ، وقبل الميلاد بحوالى أربعة آلاف عام كانت هذه الإشعاعات تملأ الحياة فى إلحاحها العظيم هذا .. ؟ ! وكيف كان الضمير والفكر يتتبعان دقائق السلوك الإنسانى التى يمكن أن تنحرف بالناس عن طريق العدل الاجتماعى وتبعاته .

لننظر . .

— « إذا أصبحت عظيما ، بعد أن كنت صغير المكانة .. وصاحبَ ثروة ، بعد أن كنت محتاجا . . ، فلا تنسَينَّ كيف كانت حالك فى الزمن الماضى ، ولا تبغين بثروتك التى أتتك منحة من الإله ، فانك لست بأحسن من أقرانك الذين حلَّ بهم الفقر » .

« احذر الشراهة ، فإنها مرض عُضال ، والصداقة معها مستحيلة »

« لا تأكل الخبز أمام مَن لا يجده ، دون أن تمدّ إليه يدك بالخبز »

« لا تصنَعن لنفسك مَعْبَراً على النهر ثم تجاهد بعد ذلك لتجمع أجره

« خذ الأجر من الرجل صاحب الثروة . .

« ورَحِّب بمن لا يملك شيئاً »

لقد ذاعت هذه التعاليم فى عصرها المديد ، وكان لها من الاحترام ما جعلها إرادة الضمير حقاً ، وما جعل لها يومذاك بين أهلها وذويها حرمة القانون ونفاذه .

* * *

ويرتبط العدل بالحكومة ارتباطا يجعل مصير الاثنين واحداً فى تلك التعاليم . .

— « إن كنت زعيما فى يدك تصريف الأمور ، فاغتنم

كل فرصة كريمة لتجعل تصرفك خالياً من كل خَطَل ؛ فالعدالة لها فائدتها ، ومنفعتها باقية ، ولم يعبث بها أحد منذ زمان صانعها « بينما القصاص فى انتظار كل من لا يأخذ بقوانينها »

ومنذ عهد « أمنمحات الأول » يوضع تقليد يفرض على كل من يتولى الوزارة أن يحفظ هذه الوصية ويقسم على احترامها — وهذه بعض فقراتها .

« اعلم أن الوزارة لا تعنى إظهار الاحترام لأشخاص الأمراء والمستشارين .

« وليس الغرض منها أنّ يتخذ الوزير لنفسه عبيداً من الشعب .

« واعلم أنه عندما يأتى إليك شاكٍ من الوجه القبلى أو من الوجه البحرى أو من أى بقعة فى البلاد ، فعليك أن تطمئن إلى أن كل شىء يجرى وَفق القانون وأن كل شىء قد تم حسب العرف الجارى ، فتعطى كل ذى حق حقه . .

« عامل مَن تعرفه ، مُعامَلتك من لا تعرفه » .

ولقد سرَت العدالة فى شرايين الحكم حتى لم يكن لحاكم أو موظف كبير ما يفخر به مثل أن يكون عادلا .

وتحفظ لنا الآثار نقوشاً باقية على باب مقبرة « أميني » أحد الأمراء المصريين حوالى « ٢٠٠٠ » قبل الميلاد ، يتحدث عن نفسه ومناقبه فيقول :

« لا تُوجَد بنت مُواطن قد عبثتُ بها

« ولا أرمَلة عذّبتُها

« ولا فلاّح طردْتُه

« ولا راعٍ أقصَيْتُه

« ولا يُوجد بائس بين عشيرتى

« ولا جائع فى زمنى

« وعندما كانت تحلّ بالبلاد سنون مُجْدبة ، كنت أحرث كل حقول المقاطعة ، مُحافِظا بذلك على حياة أهلها ، ومقدما لهم الطعام حتى لا يبقى فيهم جائع

« وقد أعطيتُ الأرملة قبل ذات البَعْل

« ولم — أُمَيِّز — الرجل العظيم ، فوق الرجل الفقير ، فى أى شىء أعطَيت

« وحتى حين أقبل الفيضان العظيم بالغلال والخيرات لم أجمع المتأخر من الضرائب » ... ! !

كم لهذه الكلمات من مَذاقٍ حلو ، وروعة آخذة .. لَكأن الضمير الإنسانى هو الذى يتحدث إلينا ويروى طرَفا من أنبائه .

ويرسل « كاجمنى » إحدى صيحات الضمير .

— « أقم العدل لتوطد مكانتك فوق الأرض

« ووَاسِ الحزين ، ولا تعذِّبن الأرملة » .

ثم يُعبر عن قانون القِصاص تعبيرا تناهى فى الروعة والفِطنة فيقول :

« إن الروح تذهب إلى المكان الذى تعرفه .

« ولا تَحيدُ فى مَسيرِها عن طريق أمْسِها » . .

أجَل . .

إن الروح لا تحيد فى مَسيرها عن طريق أمسها ، فهى تمشى فى ضياء عملها الطيب أو فى ظلمة عملها الخبيث .

وهى لن تجد غدا ، إلا ماقدّمت اليوم .. ومصير كل إنسان ليس سوى الحلقة الأخيرة فى سلسلة أعماله ومساعيه وحياته — فمن قدَّم المَعْدَلَة ، وجد النجاة ، ومن يزرع الريح ، يحصُد العاصفة .

* * *

والمساواة بين الناس فى حقوق الحياة ، تُمثل من ذلك اليوم البعيد الوجه الآخر للعدل .

ولقد أدرك الضمير منذ البدْء أنّ لجميع الناس حقوقا متكافئة ، وأن كل تفاوت وتمايُز تُنشئهما المواضَعات الباطلة لحياتهم وغرورهم ، فليسَا سِوَى تَحَدٍّ لمشيئة خالقهم سبحانه .

ومن ثَمَّ كانت مصر كلها تردد أيام المملكة القديمة ، والمملكة الوسطى هذه الكلمات وهى على لسان الإله .

— « لقدصنعتُ الرياح الأربع ، لكى يتنفس منها كل إنسان كزميله إبّان حياته . .

« لقد صنعتُ مياه الفيضان العظيمة ، لكى يكون للفقير فيها حق كالعظيم . .

« لقد صنعتُ كل إنسان مثل غيره من الناس » . .

* * *

ومن العدل يُفجِّر الضمير كل فضائل الحياة ، فالاستقامة والتواضع ، والصدق ، والبر ، والمحبة ، والثقة بالنفس وبالغير ، والشجاعة ، والأمانة . .

كل هـذه الأخلاقيات ، سيمضى الضمير فى الإيعاز بها

والحضّ عليها ، باعتبارها أركان كل حياة عادلة

— « إن الصدق جميل ، وقيمته خالدة . .

« وقد تذهب المصائب بالثروة ، لكن الصدق لا يذهب بل يمكث ويبقى »

— « لا تتكلمن مع إنسان كذباً ، فذلك ما يمقته الله ، ولا تفصِلَنَّ قلبك عن لسانك حتى تكون كل طرقك ناجحة »

— « وَلِّ ظهرك لتلك الكلمات الكثيرة التى يَنبُو عنها السمع ؛ فإن العصا المُعوجّة المُلقاة فى الحقل يجعل منها الصانع سوطاً للحاكم ، أما قطعة الخشب المستقيمة ، فيصنع منها لَوْحاً للكتابة » . .

— .. « ومن فعل فاحشة فإن المرفأ يُفلت منه ، وأرضه المُبلَّلة تحمله بعيداً »

— « لا تفرحن من أجل ثروة أتت عن طريق السرقة »

— « كن ثابتاً أمام غيرك من الناس ؛ لأن الإنسان فى مأمن بين يدى الله . .

« وإن الممقوت من الله هو مَن يُزَوِّر فى كلام ، لأن أكبر شىء يكرهه الله هو النفاق »

— « لا ترقد فى الليل مُتخوِّفاً من الغد . .

« إذ لا يعلم الإنسان ما سيكون عليه الغد . .

« فالله دائماً فى تدبيره . .

« والإنسان فى ظنونه . .

« كن حازما فى قلبك ، وثابتاً فى عقلك »

— « لا تَسخَرَنَّ من أعمى ، ولا تهزأنّ من قزَم »

— « لا تلعن أكبر منك سناً ؛ لأنه شاهَدَ الله قبلَك »

— « لا تتكلَنّ على مال إنسان آخر ، ولا تقولَن إن والد أمى له بيت . ؛ لأنه إذا جاءت القِسمة مع إخوتك فإن نصيبك لن يكون إلا محزناً » . . ! !

— « قدم قربانا لإلاهك ، ولا تتخطّ حدوده ، ولا تسأل عن صُورته ، ولا تمشِ الُخيَلاء فى موكبه ، واحترم اسمه ؛ لأنه هو الذى يعطى القوةَ جميع المخلوقات »

— « ضاعف مقدار الخبز الذى تعطيه أمك ..

« واحملها كما حملتك ..

« لقد كان عبؤها ثقيلا فى حملك ..

« وبعد أن ولدتك ، حملتك مرة أخرى حول عنقها .

« وقد أعطتك ثديها ثلاث سنوات ، ولم تشمئز من فضلاتك ولم تتبرّم ، ولم تقل : ماذا أفعل أنا ..

« وقد ألحقتك بالمدرسة عندما تعلمت الكتابة ..

« وكانت تقف كل يوم هناك خارج المدرسة تنتظرك بالخبز والجعّة ..

« فحينما تصبح شابا ، وتتخذ لنفسك زوجة ، وتستقرّ فى بيتك ، اجعل نصب عينيك كيف وضعتك أمك وكيف ربّتك بكل الوسائل .. فلا تجعلها تشكوك إلى الله وترفع إليه عويلها منه » ..

* * *

هذه بعض سمات النموذج ومعالمه .. النموذج الذى كان الضمير ينشئه ليصوغ وفقه « الإنسان العادل » و « المواطن الصالح » فى كون الله .

وبهذه المحاولة كان الضمير يكتشف عالمَ القِيم ، ويُضمِّخ الحياة الإنسانية بأخلاقياتها التى تجعل لها عبيرا وبهجة وسنخطو الآن مع الضمير الإنسانى خطوة أخرى إلى الأمام لنبصر نفس محاولته فى بقاع أخرى من أرض الناس ، ونماذج أخرى بين صفوف البشر .

* * *

نحن الآن فى الهند . . الهند القديمة ، قبل الميلاد بألف عام وإن شئتم المزيد فألفَى عام . .

وهذا الرنين العَذْب الآتى من بعيد ، إنما هو صدَى اللَّحن الباهر الذى يعزفه الضمير فى تلك البلاد الحافلة..إن ثَمَّتَ مملكةً عظمى للضمير . . الحكماء ، والعباد ، والزاهدون ، والمُتَبتِّلُون للحقيقة والخير — يقلبون وجوههم فى السماء وفى كل شىء باحثين عن الحق .

والضمير هناك يُتابع رحلته ومَسيرَه .

والألوهة ، والخلود ، ووحدة الكون ، ومملكة الإنسان — هى شغله الشاغل .

ما الله ، يومذاك فى الهند . . ؟

— « الله كائن فى الأشياء كلها

« إنها صوره الكثيرة

« وليس يعبد الله إلا مَن يخدم سائر الكائنات جميعاً »

ما أروع هذا . . . ! !

إن الضمير ليكشف للألوهة أبعاداً جديدة . . فإنها بهذا المعنى ليست شيئاً مجردا ، ولا معزولا عن العالَم فى صومعة مُقدسة . . إن الله بقدرته وأسراره ، فى الأشياء جميعا . .

والعبادة ، لم تعد إذن مجرد قرابين ذبيحة تقدم لله فى الهياكل . . بل إنها فى حقيقتها — خِدمة شاملة للكائنات كلها .

ولكن ما الله أيضاً . . ؟

نريد مزيدا من المعرفة به . .

وهنا يتحدث الضمير من خلال سِفْر « رج » أحد أسفار « الفيدا » فلنُصغ إليه .

— « لم يكن فى الوجود موجود ولا عدم

« فتلك السماء الوضاءة لم تكن هناك . . وكانت بردة السماء منشورة فى الأعالى .

« فماذا كان الغِطاء إذن . . ؟ ماذا كان المَوئل . . ؟
ماذا كان المخبأ . . ؟

« أكانت هى المياه بهُوِيِّها الذى ليس له قرار . ؟

« ولم يكن ثَمت موت ، ومع هذا لم يكن هناك مايُوصف بالخلود . .

« ولم يكن فاصل بين النهار والليل

« والواحد الأحد لم يكن هناك سواه

« ولم يُوجَد سواه منذ ذلك الحين حتى اليوم

« كانت هناك ظلمة

« وفى البَدْء كان كل شىء تحت سِتار

« مِن ظلام عميق محيط بغير ضياء

« والجرثومة التى لم تزل كامنة فى اللِّحاء ، برزَتْ طبيعة واحدة من الحر الحرُور .

« ثم أُضيف إلى الطبيعة الحُب . .

« وهو الينبوع الجديد للعقل . .

وتمضى هذه الحكمة اليانعة متسائلة ، وفاحصة ، حتى تقول :

« مَن ذا يعلم السِّر الدَّفين . . ؟

« مَن ذا أعلنه هنا . . ؟

« من أين . . ؟ من أين جاءت هذه الكائنات . . ؟

ثم يُشير إلى الآلهة الكثيرة التى اتخذها الناس عَبْر الأجيال والأزمان رَمْزاً للألوهة ، وللقوة الجليلة التى تبعث الحياة فى كل حَىّ ، فيقول عن هذه الآلهة الرمزية

« إن الآلهة نفسها ، جاءت متأخرة فى مراحل الوجود .

« فمن ذا يعلم ، كيف جاء هذا الوجود . . ؟ ؟

ثم يعلو رنين الحكمة ، ويتصدر الضمير العليم موكبها فيعلن:

« إن مَن صدر عنه هذا الخلق العظيم .

« سواء خلقة بإرادته أم صدر عنه وهو ساكن

« لَهُو ربنا الأعلى فى السماوات العُلَى » . .

هذا نُمُوٌّ واضح فى إدراك الألوهة . . تُرى نُموٌّ الضمير هذا ، أم نُمُوٌّ الفكر الذى يُعبِّر عن الضمير ، أم نموها معا .

إن الفوارق تستبين الآن بين الآلهة ، والالوهة . . وبين الإله والله . .

فإذا كان الناس من قبل قد اتخذوا لأنفسهم آلهة ، فكان

لكل بلد إلاه ، وأحيانا لكل عائلة إله — مقدسين بهذا ، الألوهة نفسها كقوة وحقيقة . . فقد آن لهم أن يعلموا أن « الله » هو «جُماع» هذه الحقيقة ، وأن « الله » الذى صدر عنه كل مخلوق وكائن ، هو الرب الأعلى ، وأن « الله » بقدرته وعلمه محيط بكل شىء . .

وسيُعبِّر الفكر عن هذه الحقيقة فى تنوُّع ورَمزية تقوده كعادته نزعة الافتراض والمبالغة ، وهنا نلتقى به يُسمى الله « أتمان » ، ويرى فى « أتمان » روح العالم . . وهو مُنبث فى كل شىء . . وفينا نحن بنى الإنسان بصورة خاصة .

فأنت إله . . أنت « أتمان » بقدر ما تحرز من تفوّق وصفاء والآن فلننطر . . إن تلميذا هندياً يتقدم من مُعلمه ويسأله عن جوهر الكائنات : أين هو . ؟

ويدور هذا الحوار :

المعلم — : هات لى تينة من ذلك التين يا ولدى

التلميذ — : هذه هى يا مولاى

— اقسمها نصفين

— قد قسمتُها يا مولاى

— ماذا ترى فيها . . ؟

— أرى حُبَيْبات دِقاق يامولاى

— تفضل واقسم حُبَيْبَة منها نصفين يا وَلدى

— قد فعلتُ يامولاى

— ماذا ترى هناك . . ؟

— لستُ أرى شيئاً على الإطلاق يا مولاى

وهنا يجيبه المعلم :

« حقاً يا ولدى العزيز ، من هذا الجوهر الذى لا تستطيع رؤيته ، نبتت شجرة التين العظيمة

« وإن روح العالم — يا ولدى — لهو الجوهر الذى ليس فى دقته جوهر سواه .

« إنه الحق . . إنه « أتمـان » . . إنه أنت يا ولدى العزيز » . . ! !

وسوف يفسح الضمير مجالا لمن يشكُّ ويتساءل ، فالشك أحد وسائل كشفِه ويقينه .

وإنه إذْ يسمع قولهم ، ليُجيبهم على لسان « براهما » .

« إنهم ليُخطِئون الحِساب ، مَن يُخرجونني من الحساب » . .

إن الضمير الإنسانى فى جولته هذه ، فى الهند القديمة قد أعطى البشرية جرعة شباب طويلة ومباركة .

وفى حكمة لا تفيض عُذوبتها غنًى للإخاء ، والحب ، والرحمة أعذب ألحانه .

وها هو ذا يتألَّق تألُّقه الباهر الودود فى شخص « بوذا »

فحين يرى الضمير كثيراً من الكهنة يتخذون الدين والعبادة سبيلا لإشاعة الكآبة فى الحياة ، وجعل تكاليفها الفاضلة أعباء قاسية تنوء بحملها الأفئدة ، يلقى يومئذ فى رُوع واحد من الأبرار كلمته الجديدة التى يُحْيى بها روح الإنسان .

هنالك ينهض « بوذا » مُزَودا بخبرة عظيمة عن بؤس الإنسان ، ومُهَيَّأً بطاقات ريَّانة ستضع نفسها فى خدمة كل ما هو إنسانى وخيِّر .

ولسوف يبدأ فى تعبيره عن مشيئة الضمير الإنسانى ، بالنهى عن الفَتْك بالحياة . .

تُرى كيف يكون سبيله لهذا ، ومِنهاجُه . . ؟

إنه ذلك السَّهل الممتنع . . الحب . . . ! !

فالحب والصفح الجميل ضرورة الحياة لكى تدوم الحياة . .

ألا فَلْيَنْشُدُ « بوذا » بتعاليمه الخالدة

أو بتعبير أصح ، لِيَنْشُدُ الضمير من خِلال بوذا .

— « إذا أساء إلىّ إنسان عن حُمق ، فإن سبيلى لوقاية نفسى منْ إساءته ، هو أن أحِبه حبا خالصا . .

« ولَئِن زادنى إساءة ، لأزيدنه خيرا . . »

هذه مشيئة الضمير إذن ، الارتفاع بالعلاقات الإنسانية فوق مستوى الكراهية والثأر . . وتحريرها من سيطرة الشر عليها .

ولسوف يكون بوذا يومئذ خير ممثل للضمير ، لا فى الدعوة إلى هذه الحقيقة فحسب . بل وفى السّير بسلوكه وَفْقَـها .

فذات يوم يأتيه أحد أولئك الذين يمارسون السفاهة بشَرَهٍ كبير ، ويتطاول على « بوذا » ويمعن فى الإساءة إليه .

فيسأله بوذا :

— « أخبرنى يا بنى . .

« إذا رفض إنسان أن يتقبل مِنْحة قُدمت إليه . . فلمن تُردُّ هذه المِنحة . . ؟

ويجيب الرجل : « إنها ترد إلى صاحبها . .

وهنا يقول « بوذا » :

— « إنى إذن يا بنى أرفض قبول إهانتك ، وألتمس منك أن تحتفظ بها لنفسك » .

ويسمى الضمير لتحرير العبادة من كل ما ينَهش رُوحَها ويَحرِمها السُموّ الخليق بها .. ويُنشىء لكل إنسان معبدَه فى ضميره وقلبه .

وها هو ذا « بوذا » يقول لبرهمى جاء يستأذنه فى السفر إلى « جايا » ليستحم فى مائها .

— « ولماذا السفر إلى « جايا » أيها البرهمى . . ؟

« كُن رحيما بالكائنات جميعاً . .

« ولا تنطق كذِبا . .

« ولا تقتل رُوحا .

« ولا تأخذ ما لم يُعط لك . .

« وعش آمناً فى حدود إنكار ذاتك . .

« وساعتئذ ، لن تكون بحاجة إلى السفر إلى « جايا »

« إن كل ماء يكون عندئذ « جايا » . . !!

● — والمساواة حقيقة لا يأتيها رَيْب ، ولن يكون ثمّت

حب ، ولا إخاء ، ولا دين ما بقى الناس سادة وعبيداً . .

— « انتشروا فى كل الأرض . .

« وبشِّروا بهذه التعاليم . .

« قولوا للناس : إن الفقراء ، والمساكين ، . والأغنياء والصَّفوة — كُلهم سواء » . .

هكذا قال بوذا لتلامذته

● — وحرية الضمير ، التى تجعل الناس مُبْدعين لا مُقلدين . . وأشخاصاً حيَّة لا ظلالا ولا دُمًى ، تجد يومذاك فى بوذا مُحاميها القدير

فعلَى كل فرد من الناس أن يهيىء نفسه ليمتلك مقادير حياته ، وأزِمَّة مصيره

وبم يُهيِّىء نفسه . . ؟ بالمعرفة

— « إن كل من صار لنفسه مصباحا يَهدِى ، ومَلاذاً يُؤْوِى ، فلن يلتمس لنفسه من غير نفسه مأوى .

« وسَيَسْتَمْسِكُ بالحق مصباحا ، فلا يطلب من غير نفسه مَلاذا . .

« أمثال هؤلاء ، هم الذين يبلُغون الذُّرَى العالية . .

« شريطة أن يكون لهم بالمعرفة شَغَفٌ عظيم » . .

* * *

إن تحرير الضمير الفردى من التَّبعيّة العمياء المُتقامِئة وتحريره من الكراهية والضِّغن ، لهو اللّحن المَجيد الذى يُغَنيه الضمير الإنسانى فى تلك الحِقبة وتلك البقاع .

ولقد غنَّاه من قبل على نحو سريع فى مصر القديمة ، وبابل أما اليوم فإنه يُفردُ له وقته ومَعازِفَه

فبينما كان فى الهند يحمل عصا المايسترو أمام بوذا ، وحكماء الهند الكثيرين ، لينشدوا ويُغنّوا لحرية الضمير ، وللإخاء والمحبة . . كان كذلك يفعل ، فى الصين القديمة مع « كونفشيوس » ، و « لودزه » وغيرهما من حكماء الصين

وكانت آفاق الصين تردد هذه الآيات :

« إذا لم تُقاتل الناس فإن أحداً على ظهر الأرض لن يستطيع أن يُقاتلك . .

« أنا خيِّر للأخيار ، وخيِّر لغير الأخيار ؛ وبهذا يصير الناس كلهم أخياراً . .

« أنا مُخلص للمخلصين ، ومُخاص لغير المُخلِصين ؛ وبهذا

أجعل النـاس كلهم مُخلصين »

هـذا هو الُحبّ العميق والعَميم للناس جميعاً مُحسنِهم ومُسيئِهم .

وهذا هو البلْسَم الذى يشفى القلوب من الـكراهية والحِقد

ولـكى يُصبح الحب على هـذا النَّحو واقعاً إنسانيا ، وليس مجرد أمنية وطَيْف ، فإنه ينبغى أن يكون هناك تواصٍ بالحق والمعروف

ويُوضح الفيلسوف الصينى « مودى » مشيئة الضمير فى كلماته هذه .

— « يحب الناس كلهم بعضهم بعضاً . .

« فلا يفترس أقوياؤهم ضُعفاءهم . .

« ولا يزدرى أغنياؤهم فقراءهم . .

« ولا يُسَفِّه كُـبَرَؤُاهم صغارَهم . .

« ولا يَخدعُ الماكرون منهم السُّذَّج »

وفى الشئون الدولية ترجَم الضمـير الإنسانى الُحب إلى مبدأين أساسيين :

أولهما — نبذ الأنانية وشهوة الفَتْح

ثانيهما — نزع السلاح من كل العالم

ولقد كان الفيلسوف الصينى « مودى » وتلميذاه « سونج بنج » و « جونج سون لنج » أصحاب دعوة هائلة فى عصرهما لنزع السلاح مما جعل الامبراطورية الصينية تكافح فى عنف دعوتهم ، وتحرق آخر الأمر مؤلفاتهم

ولكن على الرغم من ذلك ، فإن الضمير الإنسانى قد رفع فى ذلك الحين البعيد راية جديدة اسمها « نزع السلاح » وستظل تخفق عبر القرون . . تنادى الناس وتذكر الأجيال بالمرفأ الوحيد لحياتهم

أجل . . قبل الميلاد بثلاثمائة عام ، أى منذ أكثر من ألفى عام جمع الضمير الإنسانى كل خبراته عن الأخاء العالمى وصاغها فى هاتين الكلمتين — نزع السلاح — ولسوف نرى مثابرته على تحقيق هذا المبدأ منذ الأمس البعيد حتى يومنا الماثل . .

* * *

وللاعتداد بالذات ، وتحرير الضمير الفردى من الرضوخ نصيب كبير فى المحاولة الدائبة :

— « إذا لم يستطع المرء أن يقول : هذا رأيى ،

فإنى لا أستطيع أن أسْدِىَ إليه نفعاً » . .

هكذا كان يقول « كونفشيوس » ثم يستطرد قائلا :

— « وإنى لا أفتح باب الحق لمن لا يَحرص على معرفته ، ولا أقدم العون لهذا الذى يعجز عن الإفصاح عما فى نفسه »

وفى هذا الفكر الثَّاقب الذى يعبر عن الضمير الإنسانى تعبيراً سديداً يبلغ الإصرار على حرية الضمير مداه

وحرية الضمير تتطلب المعرفة المستمرة ، فالذى يشغله مَلْء بطنه الطعام عَن مَلْء عقله بالمعرفة ، ليس إنساناً وإنما هو « وَباء »

كما أن حرية الضمير تعنى الأمانة فى التفكير ، والإخلاص فى نُشدان الحق .

وما لم تتوفَّر هذه الضرورة الإنسانية ، فإن الفساد — كما يرى كونفشيوس يأخذ بخناق العالَم كله

واستمعوا له ، وهو يقول منذ أكثر من ألفى عام :

« إن العالَمَ فى حَرب وفوضى ؛ لأن الدول التى تحكمه فاسدة الحكم . .

« وهى فاسدة الحكم ، لأن نظام الأسرة فاسد . .

« والأسرة فاسدة ، لأن الفرد مُضْمَحِل . .

« وهو كذلك ، لأنه عبد أطماعه وهَواه . .

« وهو عبد أطماعه وهواه ؛ لأنه لا يعرف الحقيقة . .

« وهو لا يعرف الحقيقة ، لأنه غير مُخاص فى تفكيره . .

« فالأمانة فى التفكير ، والإِخلاص فى نُشدان الحق ، هُما بداية الطريق » . .

قد يبدو فى هذا التسلسُل ، أو هذا السُّلَّم المنطقى الذى صاغه « كنفشيوس » شيئاً من التكلف . بيْد أن النتيجة النهائية ، التى جعلها بداية الطريق ، والتى هى نشدان الحقيقة فى أمانة وإخلاص — لا مُبالغة فيها .

* * *

وفى الصين كذلك أيامئذ ، تستقر عقيدة الأُلوهية على الحق ، أو علَى ما هو أقرب إلى الحق منه إلى الأسطورة ، فبعد أن كان الإله الأكبر للخليقة هى السماء ، يعبدها الناس ؛ ويقدمون لها القرابين — أصبح الإله هو — « الشّانج تى » ، أى القوة العليا المسيطرة بعلمها وقدرتها على العالَم كله .

لقد حقق الضمير الإنسانى هنا نفس الانتصار على الوثنية الذى حققه فى بقاع أخرى

بَيْدَ أنّ انتصاره هذا سيظل شديد الحاجة إلى دَعْم كبير لن تُواتيه فُرصته إلا فى النبوّات . .

وكانت « وحدة الكون » رؤيا تلك العصور فى الصين ، فالسماء والأرض والبشَر — كل أولئك يسيرون وَفْق قانون واحد وقواعد واحدة

كما كان « الخلود » رُؤيا واضحة لدَيْهم ، حتّى لقد اختار تفكيرهم يومئذ — عبادة الأسلاف — وتقديم قرابين يومية للموتى ، باعتبارهم أحياء خالدين . بل ويملكون لِذويهم من الأحياء نَفعاً وضراً .

* * *

وفى تلك العصور الخوالى ، كان الضمير يغمر بإشعاعاته وإلْحَاحَاتِه بلداً آخر اسمه « أثينا »

وعن طريق الفلسفة الحرة بثّ الضمير الإنسانى رُؤاه

وهناك نلتقى به مَعْنيًّا بتحويل الصداقة البشرية للكون إلى نظرية علمية تهدِف إلى كشف قوانين هذه الصداقة والزمالة .

إن عصر الإنسان يوشك أن يُقبل ، وعلى الإنسان أن أن يتهيأ لاستقباله .

عليه أن يدفن آخر مخاوفه من المجهول ، وذلك بمزيد من التعرف إليه .

وهكذا تبـدأ المعرفة بمعناها العلمى ، فتأخذها مكانها السّامق بين القِيَم الانسانية .

وسيكون شعاره فى هذا الشوط : اعرِف ..

— اعرف الـكون الذى تعيش فيه . .

— اعرف نفسك . .

— اعرف كيف تَعرف . .

أجل . . إن المعرفة ليست من مملـكة العقل ، بقدر ما هى من مملـكة الضمير

فإذا ما استَنْفَر الحدْس الإنسانى قُواه فى أثينا يومذاك ، فاكتشف « أنـكساجوراس » أن الشمس كرة ملتهبة أكبر من اسبرطة ، وأن القمر كرة من تُراب . . لا يضىء وإنما تنعكس عليه أضواء الشمس . . وأن كسوف الشمس يحدث بوقوع القمر فى دورانه بينها وبين الأرض ،

كما أن خسوف القمر يحدث حين تقع الأرض فى دورانها بينه وبين الشمس . .

وإذا جاء « طاليس » ليقول : إن النبات والحيوان يغتذيان بالرطوبة ، ومبدأ الرطوبة الماء . . وما يغتذى به الشيء فمنه يتكون ، إذن فمبدأ الحياة الماء

وإذا جاء « هرقليطس » ليعلن أن « التغيير هو صراع الأضداد ليأخذ بعضها مكان بعض إذ الشِّقاق أبو الأشياء كلها » أى واضعاً بذلك مبدأ « الديالكتيك » الذى ستُبنى عليه فيما بعد فلسفة هيجل ، وماركس . .

وإذا جاء « ديمقريطس » و « أبيقور » و « ألفيبوس » ليحدسوا بأن الكون يتألف من ذرّات تناهت فى الدقة والقوة معا

إذا حدث كل هذا يومئذ . ، فليس ذلك من سِمات الذكاء الإنسانى بقدر ما هو أولا وآخراً من سِمات القِيَم والفضائل

فالضمير الإنسانى الذى غايته إنشاء المدينة الفاضلة للإنسان فوق هذه الأرض ، يُحسّ ويعى أن نجاح محاولاته

يتوقف على معرفة الإنسان لأسرار الطبيعة والكون ، وتطويع قوى الطبيعة لحاجاته .

وحين تتحول المعرفة العلمية إلى حضارة تنهض بها وعليها كل مجالات الحياة ، فإن الكفاح الأخلاقى للضمير يزداد بهذا قربا من فوزه وأهدافه

لقد وعى الضمير منذ فَجره وصباحه ، أن الانطلاق الروحى للبشرية توأمٌ لتقدمها المادى ، وأن كلا منهما يأخذ من أخيه ويَصُبُّ فيه ، وأن أى تنافر سَلْبى يَغْشَى علاقاتهما ، فسيكون مَرَدُّه ومَأْتاه قُصور فى وسائل الإنسان نفسه .

فحفاوة الضمير بالمعرفة فى كل أنواعها ، حفاوة بالمعراج الأخلاقى نفسه الذى يشيده الضمير للإنسان .

من أجل هذا كانت المعرفة كقيمة تتجلّى فى إلحاحاته منذ الْبَدْء . وإن كانت ستبلغ فى عقول فلاسفة أثينا والهند المدَى الذى يجعل منها « مُوصِّلا جيِّدا » بين التراث الإنسانى الحافل ، وبين عصر العقل الذى سنلتقى به بعد حين

ونقول : فلاسفة الهند ، لأنّ الهند القديمة شهدت من ذلك الطراز أروعه .

فقد كان هناك « كانادا » الذى نادى بأن « العالم ملىء بالأشياء التى ليست سوى تركيبات مختلفة من الذّرات تشكلت فى أشكال مختلفة » .

بل ويذهب إلى أبعد من هذا فيُعلن : « أن أشكال المادة يمكن أن تتحوّل وتتغير ، أما الذرات ذاتها فباقية لا فناء لها » .

وكان هناك « شانسكارا » الذى سبق الفيلسوف الفرنسى « كانت » بألف عام — وكان — كما يرى ديورانت — الممهِّد الحقيقى لفلسفته .

* * *

ونعود إلى أثينا حيث يُتابع الضمير دَعْم المعرفة كقيمة من قِيَم الحياة العليا .

والآن ، فالإنسان مدعُوٌّ لأن يحرر المعرفة نفسها من كل ما ينحرف بها عن الحقيقة . . أى يعرف كيف يعرف .

ومدعُوٌّ لأن يحرر نفسه من كل ما يشيع الشك فى قدرتها على التفوّق وصُنع المصير — أى يعرف نفسه ، وسيختار الضمير الإنسانى لهذا الغرض لسانه المُعبِّر وابنه البارّ « سقراط » . .

هذا الذى سأل أباه فى صباه عن سرِّ المهارة التى يحرك بها « أزميله » فى الحجر الصلد ، فينحت منه أسداً كأنه حىٌّ يتفجر حياة ، فأجابه أبوه :

— « إنى أرى الأسد كامناً فى الحجَر ، وأشعر كما لو كان رابضا هناك تحت سَطحه ، وما أفعل إلا أن أُطْلق بحركة الأزميل سَراحه » . .

والذى سأل أمه وكانت « قا بِلَة » عن سرِّ مهارتها فى إيلاد النساء فأجابته .

— « إنى فى الحق لا أصنع شيئاً سوى أنى أُساعد الطفل الرابض فى الرَّحم على الانطلاق » .

إن الفتى الذى استوعَب هاتين الإجابتين وحرَّك بهما استعداده العظيم ، لخَير من يستطيع أن يُعلِى صَرح المعرفة على أساس وطيد مِن حرية الضمير . . وسيمضى على نهج أبويه مُكرِّساً حياته لمساعدة الأفكار والحقـــــائق والفضائل على الانطلاق .

والحق أن هذا الرجل بشعاره هذا « اعرف نفسك » سيكون المؤذِّن الصادعَ لعصر العقل والإنسان . . هذا العصر

الذى سيجىء بمئات الأعوام ، والذى سيكون ثمرة حَشْد من الأفـذاذ والرواد ، ومع ذلك سيظل مدينا لسقراط بالشىء الـكثير .

إن الضمير الإنسانى يريد من الناس أن يقدسوا الحقيقة ويجعلوا البحث عنها كالعبادة

ولقـد كثرت الفلسفات والحِـكَم . وتاهت الحقيقة فى الزحام

من يجىء بها من ذلك الغبار ؟

إنه العقل الإنسانى إذا أحسن استعماله

فليعلمنا سقراط كيف نستعمل عقولنا

إنما تُفلت الحقيقة منا فى زحام المترادفات ، والـكلمات التى بُوعِدَ بينها وبين دلالاتها . . فإذا عادت إلى الأسماء مُسمَّياتُها ، وإلى الـكلمات دلالاتُها ، فإن الحـق يصبح بين أيدينا .

حين يدعو الضمير إلى الخير ، والعدل ، والحب ، والجمال ، والصدق ، والعفة

وحين ينهى عن الـكذب ، والجبن ، والشر ، والظلم

فماذا يعنى الضمير تماماً بهذه الأخلاقيات . . ؟

إن تحديد الفكرة — لفظا ودلالة ، هو وحده الذى يساعدنا على أن نعرف

وسقراط يأخذ على عاتقه مسئولية هذه المحاولة النبيلة عندما تنفرج شفتا متحدث عن كلمة مثل « أحسَن » أو « قبيح » فيجب أن تنطلق الكلمة كالرصاصة المقذوفة فى حِذْق نحو معناها الأوحد حتى لا تضطرب المفاهيم وتتلعثم الكلمات . .

— « حين قلت يا إريستون إنك سوف تخلف وطن آبائك أحسن مما وجدته ، حسبت أننى أدركت معناها كل الإدراك . .

إريستون — « وهل وجدت صعوبة فى هذا ياسقراط . ؟

سقراط — أجل ، فماذا تعنى بكلمة « أحسن » يا إريستون ؟

— « الأمر هين يا سقراط ، فحين أقول أننى سأترك أثينا « أحسن » مما هى ، فأنا أعنى أننى سأتركها « أكبر » مما هى

— دعنا إذن نفكر قليلا يا إريستون ، فأنت لا شك تعرف « كليونيمس » و « أفاجون » الذى فاز فى الأوليمبياد — فأيهما « أكبر » . . ؟

— كليونيمس طبعاً يا سقراط

— وأيهما فى الرياضة « أحسن » . . ؟

— أفاجون

— إذن يا اريسون فـ « الأحسن » ليس هو « الأكبر »

. . ويعود — إريستون فيقول :

— لا تؤاخذنى هكذا بحرفية القول ياسقراط ، فإنما أعنى بالأحسن هنا ، أنى سأعمل حتى أترك أثينا أكثر قدرة على أن تفعل ما تريد لنفسها ومصيرها . .

ويبدو سقراط ، وكأنه يعتذر :

— ها . . فهمت الآن يا إريستون ، ودعنا نفحص هذه أيضاً

« أيهما أفضل . الشجاع ، أم الجبان ..؟

— الشجاع يا سقراط

— وأين يمتاز الشجاع من الجبان . . ؟

— فى ساحة القتال طبعاً

— ولكن يا إريستون أليس فى ساحة القتال أشياء أخرى غير الصُّمود يستطيع الجندى فعلها — مِثل أن يلقى سلاحه ويهرب . . ؟

— أجل يا سقراط ، ولكن الجبان وحده هو الذى يصنع هـذا . .

— حقا يا إريستون — الجبان وحده هو الذى يستطيع أن يختـار بين الصمود والتهرب — أما الشجاع فلا يملك فى المعركة إلا أداء عمل واحد ، هو تنفيذ أمر قائده . .

« والآن ، انظر يا إريستون . . إذا كان « الأحسن » فى رأيك هو القدرة على فعل ما نشاء ، ألا يكون الجبان فى مَثَلِنا هذا ، « أحسن » من الشجاع لأنه يستطيع أن يفعل مايشاء ، وهو الهرب . . ؟؟ !

« إن القـدرة على أن يفعل المرء ما يشاء ليست هى « الأحسن » فلنبحث إذن عن معيـار آخر للأحسن يا إريستون » . .

هكذا ، وعلى هـذا النّسَق الباهر كان « سقراط »

يمعن ويغوص وراء الدلالات الخالصة . . وما كان ذلك منه سفسطة أو لغواً ، فالسفسطة مجرد تلاعب بالحوار لا هدف له

أما سقراط فكان يرى أن فى كل كلمة جزءاً من الحقيقة إذا عاونّاه على الانطلاق ، كوّن مع الأجزاء الأخرى حقيقة كاملة

هذا بدء المعرفة — الكلمات الواضحة المستقيمة

— « لأن الكلمات الكاذبة ليست متنافرة فى ذاتها فحسب — يا إقريطون — إنما هى أيضا تبعث الشر فى نفوسنا » . .

وهذه العبارة الأخيرة تكشف عن أغراض المعرفة التى يريدها الضمير الإنسانى ، فهو لا يريد المعرفة لتكديسها ، بل ليصل الجنس البشرى بها إلى الخير العام .

إن اكتشاف « الخير » وامتلاكه هما أسمى تبعات بنى الإنسان

وقد تكون كلمة « الخير » قد فقدت فى ترجمة القول والاستعمال بعض قيمتها وحقيقتها — بيد أن « الخير » فى جوهره سيظل دائما « الحياة » فى جوهرها . .

وإذن فربط المعرفة بالخير ، من أروع هتافات الضمير

ذلك أن المعرفة بلا ضمير ، قد تكون أقرب الطرق

إلى الـكارثة . . أما المعرفة النابضة بحب الخير وإرادته فتلك هى السبيل الأمثل للإنسان

وما دام الإنسان هو الذى يمسك بالدّفة فى يمينه فعليه أن يُؤْثر المسالك المستقيمة حتّى لا يُفلت منه مَرْفَأه وأَمْنُه . .

وسبيل ذلك أن يعرف إرادة الصعود الـكامنة فيه . ويشد زنادها إلى أقصاه . .

وهنا يقدم الضمير نداءه الآخر

« اعرف نفسك »

— « إن الطبيب يعرف ما ينفع العين ، ومُدرِّب الجياد يعرف ما ينفع الخيل . . ولـكن مَن منا يعرف ماينفع الروح — هذا هو السؤال الحق » . .

هكذا قال سقراط :

— من منا يعرف ما ينفع الروح . . ؟ هذا هو السؤال الحـق . .

ولسوف يجيب « سقراط » قدر جَهـده . . وسيتحدث طويلا عما يريده الإله من الناس . . وعن الروح وخلودها . ومِعراج سُموها

وعلى الرغم مما سيُخلفه من ضياء ومعرفة ، فإن الضمير الإنسانى لا يبلغ فى سقراط أوْج أمره إلا حين يقرر أن يجعل من ختام حياته درساً — أىَّ درس — فى أن المعرفة لا تجد نفسها إلا فى الشجاعة العادلة والفائقة

— « لو قلتم لى إننا سنُطلق سراحك فى هذه المرة ياسقراط ، شريطة أن تكُفَّ عن البحث والتفكير لأجبتكم قائلا : أيها الأثينيون ، إنى أحبكم وأمجدكم ، ولكنى أطيع الله أكثر مما أطيعكم

« من أجل هذا ، لن أمْسِك عن البحث والتفكير ما دمتُ حيا

« وسأظلُّ أسائل كل من ألقاه : مالى أراك يا صاحبى تُعنَى بجمع المال وإحراز الجاه والشهرة ، ولا تنشد من الحكمة والحق وتهذيب النفس إلا أقلها ، ألا يُخجلك هذا . . ؟

« لقد حكمتم بموتى ، أليس كذلك . . ؟

« ألا إنه إذا كان الموت سينقلنى إلى حياة أخرى ألتقى فيها بسائر أبناء الله الذين سبقونا إلى هناك ، والذين عمروا حياتهم بالمعرفة والفضيلة ، فذرُونى أمُتْ مرة ومرة ، ودَعُونى

أبتسم للموت وأتهلّل .. فلستُ أرتاب أبداً فى أن الموت مع الحرية خير وأبقى . »

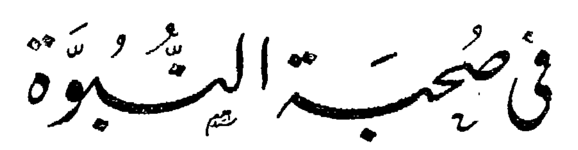
* * *

ويموت سقراط

ويبلغ « الضمير الإنسانى » بموت ابنه البارّ هـذا ، أوج الولاء للحق والخير

وبهذا الموت تتم « اللّوحة » . تتمّ « القدوة » التى سوّاها بارئها فى أحسن تقويم ، ويرفع الضمير للأجيال ـ جميع الأجيال ـ وثيقة من أعظم وثائق الشرف الإنسانى

ويبلغ عصر « الرؤيا » ذروته وأوجَه بهـذا الموقف السُّقراطِيِّ العظيم .


في صحبة النبوة

أين كان الأنبياء والمرسلون خـــــلال هذه الحركة ، وتلك القرون . . ؟

كانوا هناك لا ريب .

بل لعل الضمير الإنسانى فى رُؤاه التى صادفها التوفيق إبّان نشأته الأولى لم يكن يُعوِزُه شيء مثلما كانَ يُعوِزُه ما يَحملُ أنبياء الله من هُدًى ويقين

ففى تلك العصور الخوالى كان هناك مِنَ المرسلين مَن حملوا راية الحقيقة والخير . . « مِنهم مَن قصصنا عليك ومِنهم مَن لم نَقْصُص عليك » .

ولا ريب فى أن دورهم فى تنمية الضمير كان باهراً وعظيما .

وفى قضية الألوهة بالذات ، حيث ارتفعت بين صفوف البشريّة الأولى الهتافات الصادحة بإله واحد لا شريك له ، كان مصدر هذه الهتافات وهذه الصحوة أفئدة الذين آثرهم الله ليبلغوا كلِمَته وهَدْيَه للناس .

ففى الزمان القـــــديم كان هناك نوح ، وإبراهيم ، وهود ، وصالح .

وكانت دعواتهم المتساوقة والمُتجاورة تُرسل أصداءها في كل أنحاء هذه المنطقة التي نسميها اليوم بالشرق العربي ، أو الشرق الأوسط .

وكان جوهر رسالاتهم الإيمان بالله الواحد الأحد ، والتوسُّل إليه بالأعمال الصالحات .

كما كان هناك بعد هؤلاء ، وقبل الميلاد بقُرابة ثلاثة آلاف عام ، يوسف وموسى وهارون ، يدعون إلى الله الذي لا شريك له .

والآن ، فإن علينا أن نتابع حركة الضمير في ظلال النبوّة لنرى كيف أفاءت عليه كلمات الله خير أمداد حياته ، وانطلاقاته .

وطبيعي أننا لن نستوعب في حديثنا هذا جميع الأنبياء والمرسلين .. إنما سنكتفي منهم — عليهم السلام جميعا — بنوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، حيث يلتقي فيهم ، ويجتمع لديهم كل ما تفرّق في إخوانهم المرسلين .

فإذا بدأنا بـ «نوح» عليه سلام الله ، فلنبدأ بما تعنيه قصته من تفاؤل عظيم بمستقبل الإنسان وإعلان سيادته على كوكبه .

فبعد كارثة الطوفان الماحقة ، لا يخرج الضمير الإنسانى منها فاقد الرجاء محنى الجبهة . بل يتلقى من فوره هذه البشرى التى يحدثنا عنها فيما بعد « سفر التكوين » .

— « . . وبارك الله نوحا وبنيه ، وقال لهم : أثمروا ، واكثروا ، واملأوا الأرض . ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض ، وكل طيور السماء » .

إنه فى الوقت الرهيب الذى يُظن فيه أن الحياة قد انتهت ، يُومِض من الغيب هذا الضياء المُرتَجَى ، كاشفاً عن عظمة الأيام الواعدة المقبلة لهذا الجنس البشرى الذى كان يُظن أن الطوفان قد أذاع نعيَه وطَوَى أيامه .

وفى ذلك الحين كذلك ، يتلقى الضمير وصية الله بالإنسان وتمجيده إياه .

— « سافِكُ دم الإنسان ، بالإنسان يُسْفَكُ دمُه ، لأن الله على صورته عَمِل الإنسان » .

هذا دعوة إلى حق الله فى التقديس والإجلال .

وحق الإنسان ، وحق الحياة أيضاً ، ولكن من غير أن تذوب التخوم الفاصلة بين الله والإنسان ، ومن غير

أن يصـــــير الإنسان هو الله . . « لأن الله على صورته عمل الإنسان » . .

فمهما يكن من شأن الإنسان إذن . . هذا الذى علَى صُورَة الله سُوِّى وخُلق ، فإنه لن يبتعد كثيراً عن حقيقة أنه مخلوق لله . .

ولسوف يركِّز « نوح » على هذا الاتجاه فينادى قومه قائلا مُتسائلا :

« ما لـكم لا تَرْجُون لله وقارا . . ؟

« وقد خلقـكم أطوارا . .

« ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا » . . ؟

ومع « نوح » عليه السلام ، يشهد الضمير الإنسانى إحدى معاركه الشاهقـة لتحرير الإنسان من أوهام الوثنية والشِّرك وإنهاء تـكبيل الرُّؤَى البشرية بالأذناب الملتوية لتلك الأصنام المنحوتة من حجارة ، والسَّاجية على الأرض فى عجز وبلاهة . .

« يا قوم اعبدوا الله مالـكم من إله غيره » .

« يا قوم إنى لـكم نذير مبين

« أن اعبدوا الله ، واتقوه ، وأطيعون » .

ومن « نوح » يتعلم الضمير الشجاعة فى الحق .

« يا قوم إن كان كـبُرَ عليـكم مَقامى وتذكيرى بآيات الله ، فعلى الله توكلت ، فأجمِعُوا أمركم وشركاءكم » . . .

واختيار الحق فى تجرُّد وتبتُّل وذِمَّة ، ثم الدعوة إليه ورفع رايته دون أن يكون ثمت أى مطمع ، أو غرض ، أمر يحرص الضمير الإنسانى على تنمية موارده .. وها هو ذا نوح يلتزم هذا الموقف فى صمود وجلال .

« — فإن توليَّتُم ، فما سألتكم من أجر . . إن أجْرِىَ إلا على الله ، وأُمرتُ أن أكون من المسلمين » .

— « ويا قوم . لا أسألكم عليه مالا . إن أجرى إلا على الله » .

وحرية الضمير أثمن ممتلـكات البشر ، وأساس هذه الحرية هو الاقتناع .

« يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيِّنة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده فعُمِّيتْ عليـكم ، أنُلزِمُـكمُوها وأنتم لها كارهون » ؟؟

والمساواة أمام الله ، وأمام القانون ، محتومَة ومقدسة .

ومن نوح تلقى الضمير أروع دروسها . . فحين يحلُّ بعُصاة قومه يوم القصاص يرسل ابتهالاته الضارعة المُلحَّة . . إلى الله كى يدَع له ابنه ، ويغفر له عِصيانَه .

« . . ربِّ إن ابنى من أهلى ، وإن وعدَك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . .

« قال يا نوح إنه ليس من أهلِك . . إنه عَمَل غيرُ صالح ، فلا تسألنِ ما ليس لك به علم ، إنى أعِظُك أن تكون من الجاهلين » .

« قال ربِّ إنى أعوذ بك أن أسألَك ما لَيْس لى به علم وإلاَّ تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » .

وحين يسأله قومه أن يُبْعد عنه الفقراء الذين آمنوا معه يسألهم . لماذا يفعل ذلك . . ؟

وهل هو إلا عَبْد لله مثلما هم عِبادٌ له . . ؟

« ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملَك . .

« ولا أقول للّذين تزدرى أعينكمُ لن يُؤتيهُم الله خيراً ،

الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذن لمن الظالمين » .

لقد انتعش الضمير الإنسانى وارتوى بهذه التعاليم ، وتلقّى من الله مع نبيه نُوح كلمات أضاءت طريقه وزكَّتْ رُشده فـ « سلام على نوح فى العالمين » .

* * *

ويجىء أبو الأنبياء « إبراهيم » ويقطع الضمير معه هجرة من أعظم هِجْراته . .

إن عقول الناس فى « بابل » قد شوّهت رُؤى الضمير ؛ فعلى الرغم من إيمانهم بالألوهة ، ذهبوا يتصورونها فى أشكال وأوثان .

وإنهم ليتخذون من قوى الطبيعة آلهة . . وهناك « الآلهة السبعة الذين يقررون المصائر » . . وعلى رأسهم الآلهة « آنو ، ومردوك ، وإنليل » . .

وما دام الناس يَسْتَمْرِئون الخرافة على هذا النحو ، فان رُشْدهم يمضى متعثرا وبطيئا

والإيمان بالله الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء ، تحرير أىُّ تحرير لكل قُوى الضمير والفكر .

ومع إبراهيم عليه السلام ، يكتسب الضمير الإنسانى رُشدا جديداً . .

فالإيمان بالله الحق سيكشف له إبراهيم نهجاً جديداً . . هو النظر ، والتفكر ، والاستدلال . .

فإذا كان قومه يعبدون الكواكب والنجوم فلينظر إن كان ذلك حقا . . ؟

ويتابع حركة الكواكب طويلا ، ويخضعها لتأملاته الذكية . فلا يرى فيها جلال الألوهة ، واقتدارها ، وينتهى الى أن هذه القُوى التى تعتورها تغيرات الحدوث والنُّشوء والتطور والعدم ، لا يمكن أن تكون — الله رب العالمين وإنما هو الله خالقها ومَانِحُ كل شىء وجوده وصُمُودَه .

ومن ثم مضى يهزأ بالأوثان التى ملأت مُدن بابل وقراها بل وبيوتها . سائلا الناس

— « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » . . ؟ ؟

ثم صائحا فيهم

« . . ربُّكم رب السماوات والأرض الذى فطَرهُن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين »

ثم يهاجر بإيمانه إلى أرض جديدة يستودعها رِاسَ الحقيقة التي رآها وآمن بها .

وتسير معه أينما سار دعوته إلى الله الواحد – رب العالمين –

وتسير معه كذلك « كَرامةُ الإنسان » . .

لطالما كان الإنسان في تلك العصور والبقاع تغشاه غواشي اليأس والعجز والشك في قدرته على بلوغ الكمال

وكان « صَفْقَة » يعقد المجتمع عليها مع آلهته سلامة حياته ومصيره . فيقدم من البشر قرابين وذبائح . وسيشهد الضمير الإنساني مع نبي الله إبراهيم مشهد الوداع لكل هذا . .

إن الإنسان شيء ثمين وعظيم

– « ظهر الرب لإبرام ، وقال له : أنا الله القدير ، سِرْ أمامي وكُن كاملا » . .

هكذا يحدثنا سفر التكوين

فالإنسان الجديد في ظل ربه الحق ، ترفعه مسئولياته ومكانته إلى مستوى الكمال الفريد

« سرْ أمامي وكُن كاملا »

ومن ذلك اليوم لن يقدِّم الإنسان ذبيحة وقُربانًا

وستبطل إلى الأبد عادة اختيار الذبائح والقرابين من بين صفوف الناس والبشر

ولكى يكون إبطالها نهائياً وحاسماً فسيتمّ ذلك فى مشهد حافل ومُثير ، يعلن الله فى نهايته تحرير رقاب البشر جميعاً من تلك العادة

مع سفر التكوين مرة أخرى

— « ثم مدّ إبراهيم يده ، وأخذ السكين ليذبح ابنه ، فناداه ملاك الرب من السماء وقال : إبراهيم . . إبراهيم . .

« فقال : ها أنذا . .

« فقال : لا تمد يدك إلى الغلام ، ولا تفعل به شيئاً ؛ لأنى الآن علمت أنك خائف الله ، فلم تُمسك ابنك وحيدك عنى . .

« فرفع إبراهيم عينيه ، ونظر ، فإذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه

« فذهب إبراهيم ، وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه »

ومع القرآن فى نفس المشهد

— « فلما أسلما ، وتلّه للجبين

« ونادیناه أنْ یا إبراهیم

« قد صدَّقتَ الرُّؤیا ، إنّا كذلك نجزی المحسنین . .

« إن هذا لهو البلاء المبین . .

« وفدَیناه بِذِبْح عظیم . .

« وتركنا علیه فی الآخِرین . .

« سلام علی إبراهیم . . »

* * *

وتنتقّل الرایة من یمین إلی یمین ، حتی یحملها نبی الله موسی علیه السلام

وهنا یشهد الضمیر الإنسانی استمراراً مُلِحًّا لنفس المحاولة العظمی . . محاولة الإجهاز علی الوثنیات التی تحتجز نمو الضمیر والفكر وكل قوی الإنسان

ویرتفع الهُتاف الحـــق بالله الواحد الذی لیس كمثله شیء

إن الناس لا یزالون یریدون أن یعرفوا الله عن طریق صورته . . وهویّته . .

ومعنى هـذا أن الوثنية لا تزال تجذبهم إليها فى قوة وتشبُّث . .

ألم يتحدث إليهم مُرسـلون كثيرون عَبْر القرون ، بأن الله خالق كل شيء ؛ وليس كمثـله شيء . . فما بالهُم ينسَوْن ولا يذكرون

على أية حال ، فليأخذ نبى جديد دوره فى مجال التبصير والتذكير . .

— « فقال موسى لله : ها أنا آتى إلى بنى إسرائيل،وأقول لهم : إله آبائـكم أرسلنى إليـكم ، فإذا قالوا لى : ما اسمه ، فماذا أقول لهم . . ؟

« فقال الله لموسى : أهْيَه الذى أهْيَه . . أى — هو الذى هو . .

« وقال الله أيضاً لموسى : تقول لبنى إسرائيل يَهْوَه إله آبائـكم . . إله إبراهيم وإله إسحق ، وإله يعقوب أرسلنى إليـكم » .

هكذا يحدثنا سِفر الخروج هـذا الحديث الذى يُصوِّر زجر موسى لقومه عن أن يسترسلوا مع تلك الاستفسارات

المتطفلة التى تنتهى بأصحابها عادة إلى السؤال عن نسَب الله وعائلته . . !!

سبحانه عن ذلك وتعالى

لقد آن لقضية التوحيد والتنزيه أن تستقر فى وَعْى البشرية على صورتها الصحيحة ، ليتفرغ الناس لرعاية الحياة فى ظل ربهم الحق وفى رعايته

ولقد آن لكل صور الوثنية أن تختفى وتزول

— « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى . .

« لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة مّا ، مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت »

هكذا يعلم الله نبيه موسى ، كما يحدثنا سفر الخروج أيضا ، ويعلمه كذلك

— « لا تلتفتوا إلى الأوثان . .

« وآلهة مسبوكة ، لا تصنعوا لأنفسكم . .

« أنا الرب إلهكم . . »

ولقد سهر موسى على تنفيذ هذه التعاليم فى يقظة صارمة

وحين غاب عن قومه ثم عاد ليجدهم قد اتخذوا لهم صنماً

عجلا من ذهب له خوار ، حَمِيَ وَطيس غضبه ، وحطّم الوثن ثم قذف به إلى جوف نار متسعرة — ثم سحقه وذرّاه فى الهواء فى حُنق ماحِق

ومع دَعْم الإيمان بالله وحده ، شهد الضمـير الإنسانى موكب الوصايا وعاش بها ومعها طويلا .

— « لِقاطُ حصيدك لا تلتقط ، للمسكين والغريب تتركه . .

« لا تسرقوا . .

« ولا تـكذبوا . .

« ولا تغدروا . .

« لا تَبِتْ أجرة أجير عندك إلى الغد . .

« لا تشتم الأصم وقُدّام الأعمى لا تجعل مَعْثَرة . .

« لا ترتـكبوا جَوْرًا فى القضاء . .

« لا تأخذوا بوجه مسكين ، ولا تحترم وجه كبير . .

« لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنا ، لئلا تزنى الأرض وتمتلىء الأرض رذيلة . .

« وإذا نزل عندك غريب فى أرضكم فلا تظلموه . . كالوطنى منـكم يكون لـكم الغريب النازل عندكم ، وتحبّه كنفسك » . .

إن هذه الإنسانيات والأخلاقيات لم تكن فى مفاهيمها الواسعة سوى دعم للمسئوليات التى يفرضها الإيمان بالله

فليس إيمان الناس بربهم نعمة يُسدونها إلى الله

إنما هو معراج لحياتهم هُم ، يقودها ويأخذ بها إلى آفاق الهدى والخير والفلاح . . أما الله سبحانه فغنى عن العالَمين

« وقال موسى : إن تكفروا أنتم ومَن فى الأرض جميعاً ، فإن الله لَغَنى حميد » قرآن كريم

* * *

ويلقى موسى ربه . .

ويستأنف الضمير الإنسانى مسيره المُبارك حاملاً تُراثه المذْخُور ، وتجربته النامية منذ القِدم وعَبْر القرون ومُذيعاً بهذا كله ، فى كل مكان وبكل لسان

والإنسانيات التى طالما صدَحَ الضمير بها ودعا إليها نلتقى بها سِفر الأمثال من جديد

— « ألق على الرب أعمالك ، فتثبت أفكارك »

« البطىء الغضب خير من الجبار ، ومالِكُ رُوحِه خير ممن يأخذ مدينة »

« لقمة يابسة ومعها سلامة ، خير من بيت ملآن

ذبائح مع خصام »

« المستهزىء بالفقير ، يُعَيِّرُ خالقه »

« أفكار الصديقين عدل ، تدابير الأشرار غش »

« لا تحسد الظالم ، ولا تختر شيئاً من طرقه »

« إن جاع عدوك ، فأطعمه خبزاً .

وإن عطش ، فاسقه ماء » . .

* * *

وتمضى السنون ، وتتواكبُ الأجيال ، وينسى الناس

كعادتهم ما ذُكِّروا به ، ودُعُوا إليه . .

بيْدَ أن الضمير مشرف فى يقظة على أبراج الحراسة . .

ساهراً على حماية المبادىء التى كُرِّسَ لإنمائها

والآن،فإن صوتا صادق اللهجة ، عالىَ الرنين سوف ينطلق

من فؤاد نبى عظيم هو « إشعيا » عليه السلام

وفى ثورية عادلة سينهض الضمير الإنسانى مع هذا

النبى ليجعلا من العدالة الاجتماعية قوة فاصلة ، ومن طلبها

ثورة عادلة . .

ولما كان رجال الدين يومذاك يمسكون بأيديهم الكثير من سلطة التوجيه

ولما كان أكثرهم ، وأكثر الناس معهم ، قد صرفوا الدين عن جوهره واتخذوه تجارة واستعلاء ، فلا بد لحساب المصير الإنسانى كله أن يُواجَه هذا الزَّيْغ بمنطق صارم مجلجل

فليأت إذن « إشعيا » .. وليواجه أولئك الذين يُمْعِنون فى غسل أيديهم ، ويجعلون من قلوبهم مخازن للخديعة والضلال وكل مُوبقة ومكيدة .. !!

ليواجه أولئك الذين يتقربون إلى الله بذبح خروف .. بينما هم يسحقون الناس ، أبناءه وخلقه

وليواجه تلك الطَّبقية البغيضة التى جعلت قلة مُتخمَة هنا .. وكثرة ساغِبَةً هناك

فلنُصغ لـ « سِفر أشعيا » ..

— « لا تعودوا تأتون بتقْدِمة باطلة »

إنها بداية مُوفقة يريد بها أن يعيد الدين إلى جوهره الحق وينتزع النفوس المخدوعة بالشكليات عن الجوهر واللُّباب

« البخور .. ؟ هو مكرهة لى ..

« رأس الشهر ، والسبت ، ونداء المحفل . . ؟ لستُ أُطيق الإثم والاعتكاف . .

« رءوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى . .

« صارت علىّ ثقلا . .

« مَلِلْتُ حملها . .

« فحين تبسطون أيديكم ، أسْتُر عينى عنكم . .

« وإن كثرتم الصلاة ، لا أسمع . .

« أيديكم ملآنة دما » . . !!

تُرى ما ذا يريد « اشعيا » إذن . . ؟؟

يريد الحقيقة . . يريد الجوهر . .

« اغتسلوا . . تنقوا . .

« اعزلوا شرّ أفعالكم من أمام عينى . .

« كُفُّوا عن فعل الشرّ . .

« تعلموا فعل الخير . .

« اطلبوا الحق . .

« أنصفوا المظلوم . .

« اقضوا لليتيم . .

« حاموا عن الأرملة »..!!

هذه هى البدايات فيما يريد . . أو بالأحرى فيما يريد الله ، ويبلغه إشعيا.

● — العدل الذى يجعل الناس سَواسِيَةً آمنين

— « ويل للذين يقضون أقضية الباطل .. وللكتبة الذين يسجلون جوراً ، ليصدوا الضعفاء عن الحكم ، ويسلبوا حق بائسى شعبى ؛ لتكون الأرامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام . .

— « وماذا يفعلون يوم العقاب ، حين تأتى التهلكة من بعيد » . .

● — والحرية التى تمنح كل مَسْبِىٍّ عِتقاً ، وكلَّ أسيرٍ مُنْطَلَقا . .

ها هو ذا ينادى بها فيقول : —

— « رُوح السيِّد الرَّب علىَّ . .

« لأن الرب مسحنى ؛ لأبشر المساكين . .

« أرسلَنى لأعصب منكسرى القلب . .

« لأنادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالانطلاق . . »

● — والمحبّة ، التى تُجْلى الكراهية والحروب عن مكانها فى حياة الناس وتملأ الأرض سلاماً وأمْنا

إن رؤيا « اشعيا » عن المحبة تجىء فى صورة بُشرى بالخلاص

.. لامجرد دعوة للحب والسلام ، تجىء وَعداً أكيداً بقدومهما ،

وقُدوم مُخَلِّص يرفع رايتهما

— « يقضى بالعدل للمساكين . .

« ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض »

وعندئذ . . ولَدَى إهلال تلك الأيام المنتظرة

— « يسكُن االذئب مع الخروف . .

« ويربض النمر مع الجدى . . »

وأما الناس ، والدول ، والشعوب

— « فيطبعون سيوفهم سِككا ورماحَهم مَناجل .

« لا ترفع أُمّة على أمة سيفا . .

« ولا يتعلمون الحرب فيما بعد . . ! ! !

لقد عبَّر نبى الله « إشعيا » بهذه الكلمات والآيات عن أسمى أغراض الوجود الإنسانى .

وسيظل « المُخَلِّصُون » يجيئون واحداً بعد آخر لإنجاز هذه المهمة الجليلة

وسيبقى الضمير الإنسانى يرتاد طريق ذلك المستقبل فى تفاؤل عظيم وإصرار أعظم ، مُلقيا فى رُوع أفراد الجنس

البشرى جميعاً حَتْمِية إنجاز هذه المهمة المقدسة

* * *

وتمضى الأيام ينادى بعضها بعضاً . . وتعاليم الهدى والخير تكافح فى سبيل استمرارها

وكالعادة دائما ، تبدأ هذه العاليم فى مقاومة خصومها والكافرين بها ، ثم لا تلبث إلا قليلا حتى تجد نفسها تخوض المعركة مع أتباعها وذويها . . ! !

وحين نتجه الآن لنلتقى بالسيد المسيح ، تواجهنا هذه الظاهرة

فالذين ارتفعت بين صفوفهم من قريب دعوة المرسلين من قبل بإله واحد للعالمين ، لم يلبثوا حتى حوّلوا إيمانهم بالله إلى إله محلِّى قومى . .

والذين كان ينبغى أن يكونوا رُحماء وُدَعاء ، راحوا يسرفون فى القتل إسرافاً شديداً حتى نَعَتوه عن سوء فهم بأنه « زَكاة للرب »

والذين كان ينبغى أن يحتفظوا للدين بجوهره ولُبابه

والا يُحرّفوا الحق عن مواضعه ، لم يلتزموا هذا الواجب ولم يفُوا بذلك العهد

هذا من جانب . .

ومن جانب آخر ، كانت هناك « روما » الامبراطورية التى رغم ما كانت تُسْديه للتقدم الإنسانى من خير ، فإنها كانت تذلّ الشعوب المستعمرة لها إذلالا وبيلا

كانت تُصدِّر إليها عِبادة قيصر . . وتستوردُ منها ما لديها من ثروة ورِزق .. !!

وكانت القسوة الظالمة طابع علاقات الحاكم بالمحكوم ، والقوى بالضعيف

وكانت عقوبة الصّلب إجراء هيّناً يُشبه فى أيامنا هذه « لفْت نظر » أو غرامة « بضعة قروش » . .

وكانت محـاولات العبيـد الثورية فى روما لتحطـيم أغلالهم ، ومحاولات الشعوب المستعمرة خارج روما لنيل حريتها — هذه وتلك تُقمع بوحشية لا نظير لها سواها .

ولمَ ييأس الضمـير الإنسانى ، ولم يدَع الراية تُسقطها

من يمينه تلك الأعاصير . بل واصَلَ نضاله ضد المحرفين والمخربين والقُساة

وفيما هو يناضل ويُقاوم ، جاءه من الله ظهير

— « طوبى للوُدَعاء ، لأنهم يرثون الأرض . .

« طوبى للجياع والعطاش إلى البر ، لأنهم يشبعون

« طوبى للرحماء ، لأنهم يُرحمون . .

« طوبى للأنقياء القلب ، لأنهم يعاينون الله . .

« طوبى لصانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يُدْعَوْن — » . . !!

إنه السيد المسيح يتحدث

وإنه باسم الله وعلى بركته يأخذ بيد الضمير الإنسانى إلى نُهاه وهُداه . .

ولكن ، أفى مُواجهة هذا الظلم ، وهذه القسوة يقال للناس : طوبَى للودَعاء . . طوبَى للرحماء . . طوبَى لصانعى السلام . . ؟؟!!

أجل ، ولا يُقال إلا هذا فى مثل ذلك المَقام

فالمسيح لم يأت ليحل قضية قومية . أو زمَنية ، إنما جاء ليكشف للإنسانية بعض حقائقها الخالدة ثم يمضى ومن هذه

الحقائق . أن البشرية منذ نشأتها تُقاوم الشر بالشر ، والسيف بالسيف ، فماذا صنعت . . ؟ وإلام انتهت . . ؟

لا شيء . . مشاكلها تتفاقم . . ورصيد الشر ينمو ، وقُوى الكراهية تزيد

ولقد ارتفعت من قبل أصوات صادقة وأمينة تدعو إلى المحبة والرحمة . . ولكن الناس — جميع الناس — أصروا على الثأر ، ودفع الشر بالشر

وقد يكون ذلك طبيعياً بعض الوقت . . ولكنه لا ينبغى أن يكون طبيعياً على الدوام

فما دامت البشرية تسير إلى كَمالٍ مقدور ، فأولى سِمات هذا الكمال ، لا بد أن تكون نبذ الكراهية والقسوة والقتال

وهذا ما جاء المسيح لتبيانه على أوضح نَهْج . . تبيانه لا بما يقول من كلمات فحسب . . بل وبالنموذج الكامل لسلوكه وحياته

قد نقول نحن اليوم عن هذا المنهج الفريد : إنه تجربة لا بأس بها . .

بيد أنه عند المسيح لم يكن تجربة . . ولَدَى الضمير الإنسانى لم يكن كذلك أيضاً

هو شيء أصدق وأعظم . . هو حقيقة وجَوْهر . .

إن المسيح يقول للناس بموقفه ذاك . . إن البشرية ماضية حتماً إلى هذا . . وذاك هو مصيرها وهذا هو شكلها القادم . . إخوان يحبون إخواناً ، لا يقاومون الشر بالشر . بل بالخير . . ولا يزجرون الكراهية بالكراهية . . بل بالحُبّ ، حتى يختفى الشر وتزول الكراهية

فما دام هذا هو المستقبل المشرق المحتوم ، فلماذا لا يتعجله البشر ؟ ولماذا لا يحثون الخطى إليه ..؟ فليبدأ المسيح إذن ، وهذا هو السبيل :

— « سمعتم أنه قيل : عَين بعين ، وسِنٌ بسن . .

« وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشَّر . .

« بل مَن لطَمك على خَدِّك الأيمن ، فحوِّل له الآخر أيضاً . .

« ومَن أراد أن يُخاصمك ويأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضاً . .

« ومن سخّرك ميلا واحداً ، فاذهب معه ميلين . .

« مَن سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه . .

« سمعتم أنه قيل : تحِب قريبك وتُبغض عدوك . .

« وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم . .

« باركوا لاعِنيكُم . .

« أحسنوا إلى مُبغضيكم . .

« وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ؛ لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات ؛ فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويُمطر على الأبرار والظالمين »

تُرى . . أيُستطاع هذا . . ؟ ؟

— كيف يحب الإنسان مُبغضه . .

— كيف يُبارك لاَعِنَه ، ويُحسن إلى شانئه . . ؟

عند المسيح لا يكون السؤال هكذا . . بل يكون

— كيف لا يُحب الإنسان مُبغضه . . ؟

— كيف لا يُبارك لاعِنَه . . ؟

ذلك أن الإنسان الذى يدعوه المسيح لهذا ، هو الإنسان البارّ المتفوق

فإذا تشابهت حوافز الأبرار وحوافز الأشرار فأين إذن مزيّة الأبرار . . ؟ وإذا كان حبهم ووُدّهم مجرد رد فعل لحب الآخرين إيّاهم ومودّتهم لهم فأى فضل لهم .. ؟!

— « . . لأنكم إن أحببتم الذين يحبونكم ، فأىّ أجر لكم . . ؟

« أليس العشّارون أيضا يفعلون ذلك . . ؟ !

« وإن سلمتم على إخوانكم فقط ، فأىّ فضل تصنعون . . ؟

« أليس العشّارون أيضاً يفعلون هذا . .

« فكونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » . . ! ! !

إن وَأْد نوازع الشر والتربُّص إلى هذا المدى البعيد هو هدية المسيح إلى المصير الإنسانى كله

ولقد بلغ الدرس جلاله الأعظم حين أصرّ المسيح على انتهاج هذا المَسلَك فى أخطر لحظات حياته

فحين اقتحمت قوى الشر مُصَلّاه . . وأوثقه الباغون

وحملوه إلى حيث أرادوا أن يضعوا نهاية لحياته الطاهرة الجليلة

ساعتئذ ، وحين هَوَى تلميذ من تلامذته بسيفه على أحد الجنود المقتحمين فصَلَمَ أُذنه ، صاح المسيح فى وجهه صيحته المباركة :

— « رُدَّ سَيفك إلى مكانه

« لأن كل الذين يأخُذون بالسيف ، بالسيف يهلكون » . . .

قلنا . : إن دور المسيح كان متمثلا فى أن يُعلن هذه الحقيقة الخالدة . . حقيقة أن المحبة أقوى وأبقى . . وأن مقاومة الشر بالخير . . ليست ممكنة فحسب ، بل ومحتومة الظفر والنجاح أيضاً

وقلنا إن دوره فى هذا لن يكون مجرد ترداد هذه الحقيقة بكلماته . . بل وصَوْغ نموذَجٍ لها فى حياته

وهكذا ثابر عليها حتى لقى ربه

فماذا حدث بعد رحيله عن دنيا الناس . . ؟ ؟

إن كهنة « أورشليم » بكل مكرهم وغدرهم . .

وإن سلطان روما فى « أورشليم » بكل عتاده وعناده ..

بل إن أباطرة روما جميعاً — والامبراطورية الرومانية كلها ، قد صاروا وصارت تراباً ، ونسياناً ، وبدداً

أما المسيح .. أما إنجيله .. أما مملكته .. — ومعذرة إليه عن هذا التعبير — فلننظر .. أى ذيوع ؟ وأى مجد ؟ وأى سلطان . ؟ منذ رحل عن الأرض حتى اليوم .

صحيح أن البشرية لم تستطع مع دعوته إلى الحب صبرا ..

وصحيح أن الكنيسة نفسها ، قد حملت فيما بعد كل ألوية الكراهية والقسوة والبطش ، وضد مسيحيين من بنى جلدتها ..

وصحيح أن ما أحرزته المسيحية من مجد ونفوذ وسلطان لم يكن ما يريده المسيح ..

كل هذا حق .. ولكن كل هذا لا يطمس ذرة من الوجه الآخر للحق وهو أن المحبة كحقيقة ظافرة قد بلغت فى المسيح منتهى الوضوح والصدق

فـ « ابن الإنسان » الذى عاش بالحب، وللحب .. هذا الأعزل من كل سلاح .. الفقير من كل مال .. النابذ لكل جاه أو سلطة

يكتب له ولدعوته من الخلود ما لم يظفر بمعشار معشاره كل مَن حملت الأرض من أباطرة وملوك وسادة وأثرياء . . !!

إن المحبة إذن قادرة على صنع المعجزات التي ليست كمثلها معجزات

وإن مقاومة الشر بالخير ، والسيف بالسكينة ، والكراهية بالحب . .

إن ذلك كله . وإن لم يَحْم صاحبه أحياناً من الضُّرّ في حياة الناس القصيرة ، فإنه دائما وأبداً وحتما يمنح حياته ودعوته خلوداً لا يُطاوله خلود ويستبقى منه للبشرية بعد رحيله عنها كل نَفْعِه ، وعَبيره ، وهُداه . .

ولقد مضى المسيح فى دعم السّلام الاجتماعى بمنطقه العذب وإقناعه الوديع ، غير تارك وسيلة تُحْييه وتشد أزره إلا أوصى بها وجعلها شَعيرةً وعبادة

— « قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تقتل ، ومن قتَل يكون مُستوْجبَ الحكم . .

« أما أنا فأقول لكم : إن كل مَن يغضب على أخيه باطلا يكون مُستوْجِب الحكم . . »

ثم يُمعن إمعانَه النبيل فى دَعْم هذا السلام وهذا الإخاء . فيقـول :

— « فان قدمتَ قُربانك إلى المذبح ، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك ، فاترك هناك قربانك قُدَّام المذبح ، واذهب أولا ، واصطلح مع أخيك ، وحينئذ تعالَ وقدِّم قُربانك » . .

ويسأله تلميذه الأول « بطرس » .

— « كم مرة يخطىء إلىّ أخى ، وأنا أغفر له . . ؟

« هل إلى سبع مرات . . ؟

— قال له يسوع :

« لا أقول لك إلى سبع مرات . . بل إلى سـبعين مرة » . . ! !

وإذ كانت الأنانية ، والطمع ، واحتـكار أسباب الرزق ، من شر ما يُمزِّق وشائج السلام والإخاء والمحبة ، فقد قاومها المسيح وسفَّهها جميعاً ، ونادى بأن علاقة الناس بالمال يجب أن يكون أساسها القناعة لا الشَّرَه . .

— « لا تـكنزوا كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس

والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ، ويسرقون . .

« لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر . . أو يُلازم الواحد ويحتقر الآخر . . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال »

وحين يُسأل يوما عن طريق البر والكمال ، يجيب سائله :

— « إن أردت أن تكون كاملا ، فاذهب وبع أملاكك ، وأعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى » . . ! !

وإذ كان غِياب التسامُح ، يعنى الشَّطَط وتوتُّر العلاقات الإنسانية ، فقد وقف « المسيح » يشيد بالتسامُح وتقدير الظروف الإنسانية تقديرا يُفيء الحنان والتعاطُف

— « لا تَدينوا لكى لا تُدانوا . . ، لأنكم بالدينونة التى بها تدينون ، تُدانون . .

« وبالكيل الذى به تكيلون ، يُكالُ لكم »

ومن ثَمَّ كانت طريقته فى مقاومة الخطيئة ملائمة تماماً لإيمانه بالمحبة وبالرحمة . .

« إنى أريد رحمة ، لا ذبيحة ، لأنى لم آت لأدعوَ أبراراً للتوبة بل خطّائين »

وإذا كان الخير والشر مُتزاملان فى الحياة الإنسانية ، تزامُل السَّالب والموجب ؛ فإن أزكى السُّبُل لإرْباء جانب الخــــير هى الدعوة الحانية إليه والأخذ بيد الُخطاة فى مشاركة عاطفة

والله ربه ، ودودٌ ورحيم . . قلَّما تحدث المسيح عنه سبحــانه كمنتقم وغضوب . . وطالما تحــدث عنه كأب حان ورحــيم

— « اسألوا تُعطَوْا . . اطلبوا تجدوا . . اقرعوا يُفتح لــكم . . ؛ لأن كل من يسأل يأخذ . . ومَن يطلب يجد . . ومَن يَقْرع يُفتح له . .

« أم أى إنسان منــكم إذا سأله ابنه خبزا يعطيه حجَرا . . ؟ وإن سأله سمكة يعطيه حيَّة . . ؟

« فإن كنتم وأنتم أشرار ، تعرفون أن تُعطوا أولادكم عطايا جيِّدة ، فــكم بالحرىّ أبوكم الذى فى السماوات ، يَهب

خيرات للذين يسألونه » . . ؟ !

رؤية مُشرقة لرب كريم عظيم

هذا الربُّ الأحد الذى دعا المسيح لعبادته وحده فقال

« . . مكتوب للرب إلهك تسجد . .

« وإياه وحده تعبد . . !! »

* * *

هذا هو الحب العظيم ، الذى حمل أمانته ، وأنجز تبعاته

« ابن الإنسان » يسوع . . ! !

وما أعذب الحب وما أجلّه حين يكون نموذجه المسيح . .

لقد كان الحب دينه ووصيته وحياته

ولقد سأله سائل

— « يا مُعلِّم . . أية وصية هى العظمى فى الناموس . . ؟

« فقال له يسوع : تحب الرب إلاهك من كل قلبك ،

ومن كل فكرك ، ومن كل نفسك . .

« هذه هى الوصية الأولى والعظمى . .

« والثانية مثلها ، تحُبُّ قريبك كنفسك »

وكلمة « قريب » حين ينطقها المسيح ، يتراحَبُ مفهومها حتى يشمل الخليقة الخيِّرة جميعها

— « لأن مَن يصنع مشيئة أبى الذى فى السماوات هو أخى ، وأختى ، وأمى »

* * *

وهكذا تلقَّى الضمير الإنسانى من هذا القلب المحب الذكىّ جُرعة شباب طويلة — بل قولوا : خالدة . . وسيَظل بها ريَّانا وَضِيًّا

كما تَلقت الحياة الإنسانية . نفس الجرعة المباركة

* * *

وتمضى الأيام فى تتابُعهـا المعهود والضمـير الإنسانى يُنَمِّى خلال الزمان تُراثه . . تراثه الذى أفاءته عليه خبراته ورُؤاه . . والذى تلقاه من أنبياء الله ورسله . .

ويخوض معركته الدائمة مع قُوى النـكوص والتردد والمراوَغـة.

وبعـد رحيل المسيح ، كانت معركة الضمير قاسية ،

فاللحظات الباهرة التى عاشها الضمير مع المسيح فى حلم سعيد، ولت حثيثة . . ! !

واكتشف الضمير أن الحب الذى عاشه المسيح وتحدث عنه . . كان فى غير أوانه . . والطبائع الإنسانية ، لا يزال المدى اللازم لترويضها مديداً وبعيداً . .

لقد أعطى المسيح البشرية إحدى الحقائق الكبرى ، وهى أنه فى مستطاع البشر أن يُذيبوا كل مشاكلهم فى دفء الحب والرحمة

وسيكون دور الضمير فى تلك المرحلة من مسيره أن ينقل إلى الأجيال انطباعات تلك الحقيقة الناجحة التى شهدها بنفسه وعاشها مع بطلها العظيم

ولكنه لا يكاد يبدأ حتى تفدح سكينته الأحداث. فالصفوف التى حملت لواء المسيح ، يستشرى بينها التحريف والنزاع . . أجل بينها نفسها . . ! !

إن المثل العليا عادت ولا أثر لها فى نفوس أتباعها وفى الحياة ، إلا فى تلك الأشكال والمظاهر . . فى الكاهن.

والمذبح ، والاغتسال فى دم المسيح ..!!

وإلا ذلك النزاع القاتل مِن الذين فرقوا دينهم وصاروا شيَعاً — لكل فريق مَسِيحُه وثالوثه ..

والكنيسة البيزنطية تصْلى المسيحيين أنفسهم الذين لا يؤمنون بمذهبها عذاباً واضطهاداً . .

والعالَم يومئذ يقع فريسة لموجات رهيبة من إغارات السطو والنهب ، والتخريب . .

وأكبر امبراطورياته يوذاك تُعانى وتُعانى شعوبها ومستعمراتها معها الانحطاط ، والدّمار

فامبراطورية الرومان الشرقية ، وامبراطورية الفرس الساسانية ، تترنّحان تحت ضربات ماضيهما الظّلُوم وحاضرهما التّعِس ..

والعالم كله تقريباً فى حالة فقدان تام لكل توازنه السياسى والاقتصادى والاجتماعى

أما حياته الروحية ، فقد أجدَبها قَحط مُميت ، وتحوّلت القِيم الدينية والأخلاقية بين أيدى الحكام والسَّدنة إلى صفقة . .

أما فى قلوب الجماهير وعقولها فقد تحولت إلى أسطورة — عدا بقيّة مِمّن رَحِم الله

وفى هذه المنطقة بالذات ، حيث ينعكس عليها فوضى بيزنطة وتدهور الفرس . .

فى هذه المنطقة كما فى سواها وقعت الحياة الإنسانية تحت وطأة التخاذل والتفكك والضّياع . . ولم يعد هناك مَثَلٌ أعلى يجمعهم ويردُّهم إلى رُشدهم الأوّل

إنها ظاهرة مؤسفة ومحيرة . .

فأين محاولات الضمير فى كل تلك الألوف السالفة من السنين . . ؟

أين هُتافات المصلحين والفلاسفة والرواد . . ؟

وقبل هذا كله . . أين التراث الروحى العظيم الذى خلّفه للبشرية كلها الأنبياء والمرسلون . . ؟

لقد بدا الأمر — وكأنما أفلتت من يد البشرية جميع أرباحها العظيمة . .

حتى الإيمان بإله واحد أحد . . هذا الذى توالت مواكب الأنبياء هاتفة به . .

حتى هذا الإيمان يضيع فى لُجج الحقد وزحمة الضلال . .

وإذا كان هذا الجزء من العالَم ، حيث الامبراطورية الرومانية الشرقية ، والامبراطورية الفارسية ، وما يدور فى فلَكَيْهما من شعوب وبلاد . .

إذا كان هذا الجزء الكبير من الدنيا ، وهو يومذاك الجزء المتحضر ، أو الأكثر حضارة . .

إذا كان قد تهاوى تحت ضربات الخلاف والانحلال إلى هذا المَدَى . . فما شأن بقية الدنيا إذن . . ؟ !

إذا كانت البقاع التى يتوافد عليها أنبياء الله منذ عدَّة آلاف من السنين — قد نحَّت الإيمان بالله جانباً ، وذهبت تحترِبُ فى عنف حول طبيعة المسيح — وهل هى واحدة أم متعددة . . ؟ !

وذهب بعضها الآخر يعبد أصناماً ، وأوثاناً . .

وإذا كانت البقاع التى شهدت ميلاد كل مثَل أعلى لا يجد أهلها اليوم مثلا أعلى واحداً يجمع شتاتهم ويضىء أفئدتهم ، فما حال ذلك المُنحنَى البعيد من العالَم . . ؟

إذا كان الروم الذين ورثوا دين « المسيح » قد انتهوا إلى هذا المصير المُحزن ..

والفرس الذين جاءهم « زرادشت » قبل الميلاد بستمائة عام وثار ثورته المباركة على الوثنية والمَجُوسيَّة ، وحطم بعزم رشيد الأصنام التى كانوا يعبدونهـا من دون الله .. ودعاهم إلى عبادة الله وحـده ، إله النور والسماء « أهورا ــ مزدا » خالق السماوات والأرض ، والشموس والـكواكب التى كانوا يعبدونها من دون الله .. وناداهم إلى كل فضائل الحياة وزجرهم عن آثامها ..

بيْـد أنه ما كاد يرحل عنهم إلى ربِّه حتى حرّفوا شريعته ، وعَبدُوا النـار وقدّسوها . واتخذت كل أسْرة لنفسها مَوقِدًا لا تنطفىء ناره قـط ، يتحلّقون حولهـا ضارعين مُصَلين .

والامبراطورية التى تأسّت يوما بتعاليم « زرادشت » عادت تنشر الظلم والفساد والِاثم فى كل مكان .

أليس العالَم كله إذن — لا قُريش وحدها — فى حاجة يومذاك إلى بشير ونذير . . ؟ ؟

ولـكن بأية دعوة يجىء هذا البشير . . ؟

إنها نفس الدعوة السابقة ، والحقيقة السالفة التى هتف بها الأنبياء والمصلحون

فتلك الدعوة لم تـكن باطلا ، حتى يجىء اليوم بسواها

وهى لم تُخفق حتى يجىء بأخرى ظافرة

إنما الناس هم الذين أخفقوا فى الأخْذ بها والسير وَفقَها

سيجىء رسول جديد إذن ليرد لهذه الدعوات الصادقة شبَابَها . . .

ولِأَن أيامه المباركة فوق الأرض ستـكون آخر جولة للنبوة وللوحى فى دنيا الناس ؛ فإنه فى سبيل السمو بالروح ، لن يعمل بعيداً عن كل ماليس روحياً فى طبيعة الإنسان

لن يبنى « ملـكوت الله » فى أفئدة الأبرار وحدهم ، بل سيقيمه ويشيده وسط صفوف الجماهير والـكافّة بكل خيرها وضَعْفها

وهو لهذا لن يدَع تعـاليمه وديعة لدَى المُيول الخـيِّرة

والنوايا الطيِّبة للناس ، بل سيغرسُها فى أعماق الطبيعة الإنسانية

والطبيعة الاجتماعية معا

وهو لن يتركها حكمة منثورة ، بل سيصوغها فى تلاحُم

فذ ، حتى يجعل منها قوانين للروح وللحياة

* * *

ومضى الضمير الإنسانى يبحث عن الرائد الجديد . .

يبحث وسط العالم المتهاوى . . يبحث وسط الظلام والضياع . .

ولكن الله كان أبرّ به وأرحم ، فقد اختار بذاته

البطل . . اختار الرسول الذى سيُتمِّم عمل المرسلين

والراية التى حملها نوح وهود وصالح وشعيب

وحملها إبراهيم وموسى والمسيح

الراية التى حملها عشرات ، ومئات من أنبياء الله

والتى خفقت عاليا بكل آيات الخير والحق والإيمان

هذه الراية سيحملها المختار محمد . . وسيقود تحت لوائها

ذلك العالمَ الضـــــال المتعطش إلى التوحيد وإلى الإخاء ،

وإلى العدل ، وإلى الحرية . .

أجَل لينهض رسول الإيمان والعزيمة فقد جاء دوره .

لينهض . لكى يُمكِّن فى الأرض آخر كلمات السماء . .

و « يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك مِن ربك ، وإن لم تفعل فما بلَّغتَ رسالته . . والله يَعصِمُك من الناس »

« إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً »

« كذلك يُوحِى إليك وإلى الذين مِن قبلك ، الله العزيز الحكيم »

« وإنك لتهدِى إلى صراط مستقيم . .

« صِراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض . .

« ألاَ إلى الله تصيرُ الأمور »

« فإن أعرضوا ، فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إنْ عليْكَ إلا البلاغ » . .

وقام الرسول يبلغ رسالته ، ويردُّ الإنسانية إلى ربها الحق ، ويفتح أمام ضميرها سبُل الرُّشْد ، ومَسالِك التطور نحو المعرفة ، والخير والارتقاء

ماذا أعطى محمد الضميرَ الإنسانى ، وماذا أضاف إلى تُراثه . . ؟

إن هذا يتضح من خلال معرفتنا جوهر الرسالة المحمدية ذاتها ، فما جوهرها . . ؟

لعلّ هذه الآيات القرآنية تجمع هذا الجوهر وتشير إليه

- — إنما الله إله واحد
- — وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارَفوا
- — فاستَبِقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً
- — هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون

أجل — تلك هى الأسس التى ستنهض عليها كل مبادىء الدين وتعاليمه

١ — الله رب العالمين . .

٢ — الناس كلهم إخوة . .

٣ — الخير ، لا الشر ، هو مناط وجودنا ، وزادُ مصيرنا

٤ — الحياة شروق متجدد ومُستمر لرؤى المعرفة والعلم

هذه هى الحقائق التى سيغرسها محمد عليه الصلاة السلام فى الضمير الإنسانى ويُحكم غِراسَها

— فأما الحقيقة الأولى ، وهى وجود الله ووحدانيته

فإن محمداً يعطيها جلالها الحق ، ويعطينا صورتها المُثلى

وأى عجب ، وقد تلقَّاها قلبه من بارئه ليكون من

المُنذِرين

لقد وضع القرآن عقيدة التوحيد والتنزيه مكان كل محاولات

التعدُّد ، والشِّرك ، والوثنية . .

ولقد أعلن هذا بصورة حاسمة فاصلة

— « إن إلـٰهكم لواحد ..

« ربُّ السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق »

وهو منزه عن كل ما يتصوره الناس من تشبيه ،

وتمثيل وتجسيد

« ليس كمثله شيء » . .

« لم يَلِد ، ولم يُولَد » . .

وهو مصدر الوجود كله . والخير كله

« كُـلا نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان

عطاء ربك محظوراً »

وهو الذى صمّم وحـــده هذا الكون الهائل ، وضمنه قوانينه التى تحركه وتهديه

« أعطى كل شىء خلقه ، ثم هدى » . .

« الذى خلق فسوّى ، والّذى قدّر فهدى » . .

« ولن تجد لسنة الله تبديلا »

وهو رب ودود ، وأب شفوق

« كتب ربكم على نفسه الرحمة » . .

« ربكم ذو رحمة واسعة » . .

« ورحمتى وسعت كل شىء » . .

« إن الله بالناس لرءوف رحيم » . .

وهو إلى جوار ذلك أحكم العادلين ، فلا يُحابى ولا يُجامل . .

« كل نفس بما كسبت رهينة » . .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ..

« ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

« ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى »

« وما أنا بظلاّم للعبيد »

« وإن كان مِثقالَ حبَّـة من خردل ، أتينا بها . . وكفى بنا حاسبين »

وهو حاضر لا يغيب ، لا يَفتقـده زمان ، ولا مكان ، ولا مخـلوق

« وسع كُرسيه السماوات والأرض »

« ما يكون مِن نَجوى ثلاثة إلا هو رابعهم »

« أم يَحسبون أنّا لا نَسمع سِرّهُم ونَجْوَاهم . . ؟ بلى . . ورُسلُنا لدَيهم يكتبون »

وهو سبحانه ربُّ الجميع ، ليس بينه وبين عباده حجاب ، ولا يقف على أبوابه الواسعة كُـهّان ، ولا حُـرّاس ، ولا سَـدَنة

« فأينما تُولُّوا فثَمَّ وجْهُ الله » . .

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب »

وهو ليس إله قريش وحدها ، أو العرب وحدهم ، أو المسلمين وحدهم .. ليس إلهاً محلِّياً أو قَوْمياً . . بل هو رب العالَمين جميعاً

● — « يا بنى إسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربَّكم »

● — « يا أهل الكتاب ، لا تغلُوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » . . .

● — « يا أيها الناس ، اعبدوا ربكم الذى خلَقكم »

ليس رب محمد إذن إلا رب الأقوام كلهم ، والناس أجمعين . . ولا فضل لقوم عند الله على آخرين

— « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . .

وهو إذا آثر قوماً ، أو أحداً بحبه ورضوانه ، فليس إلا لما معهم من خير وصلاح .

فهو سبحانه :

« يحب المُقْسِطين » . .

« يحب المُحسنين » . .

« يحب الصابرين » . .

« يحب التوّابين ، ويُحب المتطهرين » . .

« يحب المتقين »

وكذلك الشأن فيمن ، وفيما لا يُحِب . .

فهو سبحانه :

« لا يحب المعتدين »

« لا يُحب الفساد »

« لا يحب كل مختال فَخُور »

« لا يحب المستكبرين »

« لا يحب كل خوّان كَفُور »

« لا يُحب الظالمين »

* * *

وأما الحقيقة الثانية . . وهى الأخوّة البشرية ، فقد جلاّها

ووضعها فى أحسن تقويم

فالرسول الذى نشأ فى بيئة قَبَلية ، القبيلة فيها أوسع مجال جغرافى ، وأرحب مدى لحدود التآخى والتعارُف — يُطِلّ بروحه على الأرض كلها والبشَرية جميعاً — أبيضها وأسودها وأصفرها . . ويتردد فى القرآن المُنزَّل على قلبه كلمة « العالَمين » عشرات المرات

فالله « رب العالمين »

والقرآن « ذِكْرٌ للعالَمين »

والرسول « رحمة للعالَمين »

« لتكون للعالَمين نذيراً »

« يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً »

ومن بين جميع الأنبياء والمرسلين — كان محمد الرسول الوحيد الذى كتب لكل الملوك والرؤساء المجاورين له ، بل والبعيدين منه

وهو حين كتب إليهم يبلغهم كلمة الله ، لم يكن يملك قوة — أية قوة — تضفى عليه سِمَة الفاتح ، أو الراغب فى فتح

كان صاحب دعوة لا أكثر ، أمره ربه أن يبلغها للناس جميعاً

ولما لم يكن قادراً على أن يطوف بالأرض كلها ، ويقابل الشعوب جميعاً

ولما كان الناس على دين ملوكهم إلى حد كبير . . فقد اكتفى يومئذ بأن يبلغ ملوك الأمم ورؤساءها جوهر رسالته ليؤمنوا ، وليدعوا أقوامهم إلى الإيمان

فهو بكُتُبه تلك التى أرسلها هنا وهناك . إنما كان يحمل تبعاته تجاه البشرية كلها . إيماناً منه بوَحدتها .

وحقيقةُ أن الناس كلهم إخوة . . تتجلَّى فى القرآن الكريم تجلياًّ باهرا .

فالقرآن لا يرى هـــذه الوحدة فى صورتها التاريخية والاجتماعيـة فحسب . . بل ويراها كذلك فى صورتهـا البيولوجية ، وبهذا يعطيها قداسة أوْفى .

ها هو ذا يتتَّبع الأطوار البيولوجية لهذه الوحدة ، فيقول :

— « ومن آياته ، أن خلقـكم من تُراب » . .

ثم — « خلقَـكمُ من نفس واحدة » . .

ثم — « خلقكم ، والذين من قبلكم » . .

أما صورتها التاريخية والاجتماعية ، فيعرضها فى هذه الآية الكريمة :

— « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » . .

فالبشرية إذن بدأت كلها من تراب . . ثم من أب واحد وهى كلها بدأت فى التاريخ أمة واحدة وعالماً واحداً . .

أجل — كانت رعيلا واحداً ذات يوم . . ولكن هذا الرّعيل تحوّل مع نموّه المتكاثر ، وهجراته الكثيرة التى غمر بها وجه الأرض — إلى شعوب وقبائل وأمم

وفيما بعد ، وقد صار لكل شعب شخصيته ومصالحه ، بدأ الخلاف ، ولكن ستكون العاقبة أن تعود البشرية إلى نقطة انطلاقها فى حركة « حلزونية » وفى مُستوًى أعلى .

وكذلك : — « جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »

هكذا أعطى القرآن الإخاء البشرى قانونه ، وهو يُتمّ صياغة هذا القانون فى حذق عظيم .

فإذا كانت الآفة التى تعرقل نمو الإخاء والتعارُف هو التعصب . . ففيم يكون التعصُّب عادة . . ؟

إنه يكون للجنس . . واللون . . واللُّغة . . فليمحق القرآن هذه الآفة فى محيطه ليعطى القدوة والمَثَل . .

لقد بدأ فأعلن — كما سبَق — أن الله ربُّ العالمين .

وأ كرَمُ الناس على الله ، ليس أبيضهم ولا أسودهم بل أتقـاهم.

وأعلن الرسول أنه : « لا فضـــــل لعربى على عجمى إلا بالتقوى »

ورفعَ « بلالا » الحبشى . و « سَلْمانَ » الفارسى فى دعوته وأمته مكاناً علِيا . .

وهكذا نَحّى التعصُّب للجنس بعيداً . .

أما اللَّون ، واللغة فقد عجب القرآن ، وعجب محمد من الذين يجعلون منهما امتيازا يعطيهم حقوقا ليست للآخرين ، بينما هما ليسا إلا آيتين من آيات الله :

— « ومن آياته خَلْق السماوات والأرض ، واختلافُ ألسنتكم وألوانكم »

———

ووقف محمد ينادى فى الناس :

« ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى » . .

وانتظم القرآن مِن آياته وكلماته ، كلمات ليست عربية ، ليُعلِّم الناس أنه وهو الكِتاب العربى المُبين لا يرى فى اختلاف الألسنة مدعاة لتعصب أو انطواء .

* * *

وهذه الوحدة البشرية التى يقدمها ويُهديها الإسلام إلى الضمير الإنسانى ، لا تقوم على خَواء . . ولا تستمدُّ بقاءها من الأريحية الإنسانية ، والنوايا الطيبة وحدها ، بل تصل نفسها وقانونها بجذور الطبيعة الإنسانية كلها . ، فحين ينادى الإسلام بالحب مثلا . . فهو يعلم أن الحبَّ خلال التطبيق الإنسانى والنّزعات والغرائز ، يشبه العملية الحسابية . . لا نظفر فيها بحاصل الجمع مثلا ، إلا بعد أن نجرى عملية الجمع أولا . . . فلكى نظفر بالمحبة ، يجب أن نظفر قبلها بأشياء كثيرة . . هذه الأشياء التى يرتبط الحب بها ارتباط حاصل الجمع بالأرقام المجموعة نفسها .

أظنكم الآن تعجبون من إقحام الأسلوب الرياضى والحسابى فى شفافية الحب وألقه . .

ولكن هذا ، هو دَوْر محمد العظيم . .

وهذه هى هديته إلى الضمير الإنسانى

أن يُحوِّل كل القِيَم العليا التى آمن بها وآمن بها إخوته الأنبياء من قبله — إلى قوانين ثابتة واضحة ، لا تنحرف عنها معانيها ، ولا الأنفس الدائرة فى أفلاكها .. !!

ونعود للمثال الذى كنا نضربهُ وهو الحبُّ . .

قلنا : إننا لا نظفر بالحب إلا بعد أن نظفر بمقدماته

هذه المقدمات التى هى فى نفس الوقت نتائج لمقدمات أخرى .

فنحن نعرف أن الحب يؤلف بين الناس حقا . .

ولكن متى . . ؟

عندما يكون العدل قائما

أما حين يختفى العدل فلا يؤلف بينهم يومئذ سوى الحِقْد والكراهية

ولـكن هل العدل وحده مُناخ الحب . . ؟

كلا . .

فالعدل قد يكون صارماً ، وقاسيا ، ومُتزمّتا . . وعندئذ يختفى التسامح ، وتختفى الرحمة ، فيختفى الحب رغم وجود العـدل . .

لقد كان المسيح يقظان لـكل هذه الاعتبارات حين هتف بالحب وجعل حياته محبّة .

ولئن كانت أيامُه لم تطل على الأرض حتى تبلُغ دعوته مَدَاها ، فإن أخاه محمدا لَيُواصِلُ التقدُّم فى خُطى ثابتة ، ووعى عظيم

ليست النوايا الطيبـة إذن — كما أسلَفْنا — هى التى يستودعها محمـــــد الأخوة البشرية . . بل سيضع بذرتها فى أغوار الطبيعة البشرية والطبيعة الاجتماعية معاً

وسيهديه القرآن إلى الطريق . .

إن البشرية الراقية عند القرآن تتمثل فى :—

الذين آمنوا وعملوا الصالحات . .
وتواصَوْا بالحق ، وتواصَوْا بالصبر

فالحق ، والصبر ، هما معراج التفوّق الإنسانى ، وقانون العلاقات الإنسانية

فالتواصى بالحق — يعنى احترام كل حقوق الإنسان

والتواصى بالصبر — يعنى أداء الواجب وتحمل كل تبعات الرشد . .

وتحت حقوق الإنسان يدعَم القرآن والإسلام كل الحقوق من عدل ، ومساواة ، وحرية ، وسواها . .

وتحت واجبات الإنسان ، يَدْعَمُ القرآن والإسلام كل الواجبات من أمانة ، وإتقان ، واستقامة ، وسواها . .

بيد أن كل حق وكل واجب ، يُشبه قطعة النقود ذات الوجهين . . فهو حق وواجب معا . .

فالعدل مثلا حق من حقوق الناس — يجب أن ينالوه ، وهو فى نفس الوقت ، واجب من واجباتهم ، عليهم أن يُؤَدُّوه . .

ونحن حين نريد أن نظفر بإخاء عالى ومحبة صادقة ، فإنه يجب أن يكون هناك تواص عميم بالحقوق والواجبات جميعاً . . بالحق والصبر كليهما . .

وفى عالم كما لمنا ، متعدد الشعوب ، كثير الدول ، مفعم بالتناقضات ، لا بد أن يكون لفضيلة الأخوة قانونها

ولقد صنع الإسلام هذا

فشاد العلاقات بين الأفراد على نسق قانونى محكم

وشاد العلاقات بين الدول والأمم على نسق قانونى محكم . .

وفى كلا المجالين لم يخرج الطبيعة الإنسانية ، والطبيعة الاجتماعية من دائرة ملاحظته واهتمامه . .

ففى المجال الفردى وضع قانون السلام والإخاء على هذا النحو .

● — « ادفع بالتى هى أحسن السيئة، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم »

فإذا عجز الإنسان عن هذا الأمثل والأفضل ، وعجز عن مقاومة رغبته المشروعة فى القصاص . . عندئذ

● — « فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به — ولئن صبرتم لهو خير خير للصابرين »

جزاء سيئةٍ سيِّئةٌ مثلُها — فمن عفا وأصلحَ

، بين الناس حتى يتآخوا ويتحابوا

اثنا لمدين مُرهق . .

لرةٌ إلى مَيْسَرَة ، وأَنْ تصدَّقُوا خير لكم »

ينا على وديعة أو حق

دِّ الذى اؤْتُمِنَ أمانته »

أن يَهَبَ الناس حُبَّه وتواضعه وإكبارَه

بسخر قوم من قوم »

خدك للناس »

« وقولوا للناس حسنا »

« وإذا حُيِّيتم بتحيَّة فحيُّوا بأحسَن منها أو رُدُّوها »

« وإذا قُلتم فاعدلوا . ولو كان ذا قربى »

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم »

« وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى »

« ولا تتمنّوا ما فضّل الله به بعضكُم على بعض »

« ولا تقربوا الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن »

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْنا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »

* * *

وأما مجال العلاقات الدولية فقد صاغ لها هى الأخرى قانونها الذى يحقق إخاء عالمياً وسلاماً دائماً

فالدول عادة تتنازع وتحترب حول مناطق النفوذ والثروة . فليبدأ القرآن بإعلان هذه الحقيقة

● — « خلق لكم ما فى الأرض جميعا »

فلكى تكون الحياة للجميع ، ينبغى أن تكون مصادر الحياة للجميع أيضاً

فإذا ما أخذت كل أمة نصيبها ، ووضعتها مقاديرها فى مكانها من الأرض ، وحظها من الرزق ، فليُحترم لكل ذى حق حقه . . وعندئذ

● — « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »

والعدوان بكل أشكاله يجب أن يُدحَض ويُشجب ، وإذا كان عدوانا مسلحا ، يستهدف قتل الأنفس وتخريب الحياة ، فيجب أن يُقاوم . .

وأسلوب مقاومته ينتظم المراحل التالية :

(١) — يُطالب من المعتدين أن يكفوا عن عدوانهم ، ويؤثروا تعايشًا سلميا صادقا

— « لكم دينكم ، وليَ دين »

« فلذلك فادْعُ واستقِم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهُم . .

« وقل آمنتُ بما أنزل الله من كتاب ، وأُمِرت لأعدل بينكم . .

« الله ربنا وربكم . . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . . لا حُجّةَ بيننا وبينكم . . الله يجمع بيننا وإليه المصير »

(٢) — فإن أصرّ المعتدون على عدوانهم المسلّح فعندئذ

● — « أُذِنَ الذين يُقاتلون ، بأنهم ظُلِموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . .

« الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق »

(٣) — فإذا فاء المعتدى إلى رُشده وأعان رغبته في الانسحاب أو الصلح .. وجب أن يُجاب إلى رغبته المسالمة حتى لو يكون مخادعا ..

● — « وإن جنحوا للسّلْم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ..

« وإن يريدوا أن يخدعون فإن حسبَك الله ، هو الذي أيّدَك بنصره وبالمؤمنين »

هكذا يعلم القرآن رسوله ، إذا دعوك للسلام فبادِرْهم إليه ، حتى لو أرادوا بذلك خداعَك ، لأن واجبك ألا تضيع فرصة السلام مهما تكن هذه الفرصة وَهْنانة ومهما يكن الشك في طبيعتها .. وبإيثارك السلام ، وحفظ الدم المسفوك ، فإن الله سيقيك شرّ خداعهم إذا أرادوا أن يخدعوك ..

(٤) — إذا عادوا للقتال ، فقاتل ، ولكن ليكن قتالك دفاعيا ، لا تبتغى به أيًّا من أغراض الحياة ، وَليكن موجها ضد الباغى عليك وحده

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا »

---

(٥) — وأما المحايدون فاحترم حيادهم ، حتى لو يكونوا

من نفس القوم الذين يهاجمونك ويقاتلونك

« .. حَصِرَت صُدُورُهم أن يُقاتلوكم أو يُقاتلوا قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم ، فإن اعتزلوكم ، فلم يُقاتلوكم وألقَوْا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »

* * *

أما الدول الصديقة ، فالقرآن يدعو الرسول إلى توثيق العلاقات بها ، مهما يكن اختلاف العقائد والدين . .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »

* * *

وأما الآخرون الذين ليسوا أصدقاء مُسالِمين ولا أعداء مُهاجِمين . . وإنما هم يبسطون ألسنتهم بالسوء ويُديرون حرباً باردة ، ويُعبِّرون عن عدائهم بوسائل لا تبلغ حد الهجوم المسلح ، فموقف المؤمنين منهم يتمثل فى هذه الآية

« يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء »

وتكشف آية أخرى عن صفتهم فتقول :

— « لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزوا ولَعِبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين »

حتى حين يدعوهم لتجنُّب الذين يسخرون منهم ويُؤَلِّبون ألسنتهم عليهم، يأمرهم أن يكون هذا التجنُّب فى غير بغى .. يأمرهم أن يتجنبوهم فى رفق وعدل وتقوى :

« واتقوا الله إن كنتم مؤمنين »

* * *

وَفى التطبيق العملى ، نجد الرسول محمداً قد عاش هذه الآيات . .

نجده قد بذَل من ذات نفسه فى سبيل الُحب والسلام ما ينوء بحمله بَشَر .

فلقد لبث فى مكة عشر سنوات كاملة ، يلاقى كل صنوف الأذى والاضطهاد والسخرية وهو لا يزيد عن أن يقول

« اللهم اغفر لقومى ؛ فإنهم لا يعلمون »

لم يكن ذلك ضعفا . . فإن الضعيف مهما يكن ضعفه ،

قادر على أن يلطم خصمه أحيانا ، أو يكيد له ، أو يثور عليه

أما الرسول ، فخلال سنوات عشر ، لم يلطم إنسانا لطمة ، ولم يحمل لإنسان ضغنا . . بل كان يبدو ، وكأنه يستمتع بأذى قومه وخُصومه . . ! !

وحين افتقد ليومين أو ثلاثة ، ذلك الرجل الذى اعتاد أن يلوث باب داره كل صباح بروث البهائم . .

حين افتقده الرسول ، وعجب كيف مَضى يومان لم يقترف فيهما فَعْلَته ، سأل عنه ، فلما علم أن المرض أقعده . . خفّ إلى داره ليعوده وليدعو له بالعافية . . ! !

عشر سنوات كاملة يقول للذين يشبعونه أذى وعدوانا . .

« لَكُمْ دينكم ولىَ دين »

وبعد هجرته وأصحابه إلى المدينة ، وبعد الحديبية حين بدا أن قريشا تريد أن تجنح لسلام . . قبل كل شروطها مع فداحة هذه الشروط فداحةً جعلت المسلمين يضجُّون لقبولها . .

فَعَل الرسول ذلك لأنه يريد السلام

وحين أحاطت به وبدينه وبأصحابه المؤامرات المدججة

بالسلاح والغدر ، ولم يعد أمامه إلا أحد طريقين — المقاومة . . أو الاستسلام لقوّى لا ضمير لها . . اختار المقاومة ؛ لأن واجبه يفرض عليه اختيارها

وعندئذ رسم لنفسه ولأصحابه حدود المعركة ، فهى لا تجاوز تلك الأيدى المنقضة بالسلاح من الغزاة الرجال . .

أما ما وراء ذلك ، فقد زجر النبي فى حسم عن أن تُقتل امرأة ، أو طفل ، أو شيخ . .

ونهى عن أن يُحرق نخل ، أو زرع ، أو يُهدم بيت . .

* * *

هكذا فى إيجاز تلقى الضمير الإنسانى من القرآن والإسلام هذه الوثيقة فى قضية الإخاء الإنسانى . . والعلاقات الدولية

وإنها لتتلخص فى هذا المبدأ :

[للناس جميعهم السلام ، ولا عدوان إلا على الظالمين]

* * *

أما الحقيقة الثالثة ، وهى أن « الخير » هو غرض الحياة ومناط مسئولية الإنسان . . فإن « محمداً » بهذا يرفع مستوى الحياة الإنسانية كلها إلى كمالها الميسور والمقدور

وهو لا يجامل الحياة ولا الإنسان بهذا ، بل يحدد لهما طبيعتهما وغرض وجودها

والخير لديه إيجابي دائما .. وهو قرين الإيمان ، فالقرآن دائماً يذكر الإيمان مقروناً بالعمل الصالح

● — « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك هُم خير البرِيّة » ..

والقرآن يخاطب الرسول نفسه قائلا :

● — « فلذلك فادْعُ واستَقِم كما أمرت »

فالخير الذى يُدعى الناس إلى أن يتبارَوْا فى إحراز حظوظه الوافية إذْ يقول :

● — « فاستَبِقُوا الخيرات »

هذا الخير يعنى الاستقامة على الجادّة ، وحَمْل تبعات الوجود فى ذِمّة

وللخير أيضاً قانُونه

فإذا كانت أولى تبعات الوجود أن تؤمن برب هذا الوجود وخالقه ، فإن هـــذا الإيمان يقتضيك أن تعبد الله ..

وعبادة الله فى التحليل النهائى لا تعنى أكثر من إسداء الخير لنفسك . . أجل لنفسك أنت . .

فالله — بداهةً — لا ينتفع بصلوات الناس حين يصلون ، ولا بصدقهم حين يصدقون ، ولا بأمانتهم حين يكونون أمناء ، ولا بوفائهم وسخائهم حين يكونون أوفياء ، أسخياء

إنما ينتفع بهـذا ذووه . . إذ يزكُّون بكل هـذه الشعائر والفضائل أنفسهم ، ويُنَمُّون كمالهم الإنسانى ، ويُؤَمِّنون مصايرهم

والصلاة — مثلا — ليست سوى لحظات أمن وسكينة ، تتجدد خلالها وتنمو علاقة الإنسان بأعظم قُوى الوجود وخيرها — الله رب العالمين

وشعائر الدين وأخلاقياته ، ليست إلا تدريباً لقُوى النفس والروح ، وزاداً لاغنى عنه للنفس والروح

وإن لكل مجتمع أخلاقياته التى يرعاها العرف ويحميها القانون

بيد أن المزية العظمى لربط الخير والفضيلة بالإيمان تتمثل فى أن هذا الربط يجعل الفضيلة ذاتية . . يجعلها جزءاً من نفس

صاحبها وحياته لا يستغنى عنها إلا كما يستغنى عن عضو من أعضاء جسمه ..

أما ربطها بقانون العقوبات ، فإنه يجعلها فضيلة اجتماعية ، قد يرتبط الإنسان بها على كُره

أجَل .. إن ربط الفضيلة بالله .. يجعلنا نَعيشها ..

أما ربطها بالقانون ، فيجعلنا نُعايشُها ..

والخير عند محمد هو وظيفة الإنسان ووظيفة الحياة معا ..

ومن ثَم فليس هناك أية قوة تستطيع أن تجعل الإنسان غير مُهيّأ لممارسته

فأفدح خطايا الأرض لا تسلُب الإنسان خيْريته إلا لحظة ارتكابها أو إبّان إدمانها ..

أما بعد أن يأسف ويعتذر إلى الله ، ويعقد العزم على متاب

« فأولئك يُبدّل الله سيئاتهم حَسَنات »

« فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه »

« والله يريد أن يتوب عليكم »

« وأنِ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُمتِّعْكم متاعاً حسَناً »

* * *

والخير بمفهومه هذا . . أي الاستقامة والعمل الصالح وحمل مسئولية الوجود ، يبقى إذا نُحِّى عنه الرياء والمُقايضة ومن ثَمّ قدّس الإسلام الإخلاص ، قائلا :

● — « فاعبد الله مُخلصاً له الدين »

« يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون »

« ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطَرا ورِئاء الناس »

والقرآن حين يقول :

« فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مَرجعكم جميعاً »

إنما يضع مَثوبَة الخير فى أعلى مقام . . فمهما يظفر الخيِّرون من ثواب ونجاح فى الدنيا ، فإن ثوابهم عند الله أوفى وأعظم . .

ومسئولياتنا عن الحياة الدنيا مرتبطة بمصيرنا فى الحياة الآخرة — هكذا يقرر القرآن

إذن هناك خلود يؤمن به الإسلام . . وإذا كان الضمير الإنسانى قد استشرف الخلود منذ أيامه الأولى ، فإن الإسلام يعرض قضية الخلود ، وعقيدة البعث والحياة الأخرى عرضاً سديداً

إنه يراها ركناً من أركان الإيمان . . ولقد أجرى القرآن حوار باهراً مع منكرى البعث والمؤمنين باستحالته . . فالله

« يبدأ الخلق ، ثم يُعيدُه ، وهُو أهوَن عليه » . .

لو أرَيْنا بذرة « مانجو » لمخلوق ، لم ير الأشجار قط ولا يعرف عنها شيئاً وقلنا له : إن هذه القطعة المتخشبة الميتة ستُبعث شجرة وارفة مُترعة بالثمر ، لصَعُب عليه تصديق ذلك . . ولقد كان الكافرون بالبعث يقفون موقف هذا المخلوق . . وكان بعضهم يأتى بعظام ميت ويقول : أيبعث الله هذا بعد مارَمَّ . . وكان القرآن يجيبه : أن : نَعَم

« يحْييها الذى أنشأها أوّل مرة » . . !!!

ويسألهم الله سبحانه :

« أفَعَيِينا بالَخلْق الأوَّل .. ؟ بل هم فى لَبْسٍ من خَلْق جديد » !!

* * *

أما الحقيقة الرابعة ، وهى أن الحياة شروق متجدد للمعرفة والعلم ، فإن الاهتمام بها يبدأ مع أول أمر تلقّاه الرسول من ربه

لقد كان : — اقرأ ..

كما كانت أول نعمة مَنّ بها الله على عباده مذكراً إياهم بجميل فضله هى :

— « الذى عَلّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم »

ولطالما يُذكِّرُ القرآن النـاس بأنه لا يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمـــــون .. تماما . كما لا تستوى الظلمـات والنور

والعلم لدَى القرآن ليس تفوقاً عقليا فحسب .. بل هو تفوق أخلاقى أيضا — فأكثر النـاس معرفة بالله وخشية له ، هم العلماء

• — « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء »

• ـ « وإنما يتذكّر أولوا الألباب »

وبهذا أيضا يكشف القرآن عن حقيقة العلم الحق ، والمعرفة القديمة . . فليس العلم مُجرّد تحصيل ، وليس العالم مجرد لقب . . بل هما أن يكون نصيبك من الخير مُساويا لحظّك من العلم أو يزيد

والعلم دائما موضع تكريم الله واعتزاز الأنبياء . .

« وكذلك يَجتَبِيكَ ربك ويُعلمك من تأويل الأحاديث»

« وإنه لَذو عِلمٍ لِمَا علّمناه »

« خَلَق الإنسان ، علّمه البيان »

« يتلو عليكم آياتنا ، ويزكّيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة »

« ذَلِكُما مِما علّمني ربي »

ومن القرآن تلقَّى الضمير الإنسانى أذكى اللّفتات وأروعها نحو قيمة المعرفة ومَداها

فالقرآن يثير فى الضمير الإنسانى دائما أشواقه إلى الغيب . . وإلى الكون كله ، ويقتحم بالعقل الإنسانى أسوار المجهول ، ويُقيم لوحدة الكون قاعدة من العقل والنظر والاستدلال

لقد حاولت الفلسفة من قبل أن تعرف حقيقة الشمس ، والقمر ، والأرض — وتخدِسَ فى هذا السبيل حَدْسَها المشكور . .

لكنَّ دينا ، كل وظيفته كما يحسب الناس ، أن يدعو لطاعة الله ، ومكارم الأخلاق . . ما شأنه بالحديث عن طبيعة الكون وحقائقه

إنه لعظيم حقا حين يدعو العقل الإنسانى إلى الغوْص ، والتحليق وراء المعرفة الكونية فى غير إجفال أو تهيُّب

ولم يكن المهم يومذاك أن يتحدث القرآن عن تفاصيل هذه الحقائق

إنما كان المهم أن يُعلن أن بحثها ليس محظوراً . . بل مطلوبا . . وأن يشجع العقل على تحدِّى الصمت ،

والوجُـوم أمام الغيْب والـكوْن

وفى سبيل هذا عمد إلى الشمس والقمر والأرض ، فحدث الناس عنها حديثا جديداً

فالشمس ليست كوكبا ثابتا كما يعتقد الناس بل هى

- — « تجرى لِمُستقر لها »
- — « والقمرَ قدَّرْناه منازِل »
- — « والسماء ذات البرُوج »
- — « كُـلٌّ فى فلَكٍ يَسْبحون »

والأرض ليست ثابتة فى مكانها — اقرأ هذه الآية :

- — « وترى الجبال تحسَبُها جامدة وهى تمرُّ مَرَّ السحاب صُنْعَ الله الذى أتقَن كل شيء »

والسماوات ليست فراغا ، بل إن فى كواكبها لمخلوقات كثـيرة

- — « ومِن آياته خلق السماوات والأرض، وما بثَّ فيهما من دابَّة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير »

وفى تعبير القرآن عن السماوات بصيغة الجمع .. مقابل كوكب الأرض بصيغـة المفرد ما يشـير إلى أن المعنِيَّ بالسماوات

هنا تلك الكواكب السابحة فى الفضاء الأعلى

ما معنى ذلك ؟ إن ذلك لا يعنى بحال أن القرآن كتاب فلك .. ومن ثَمّ فهو لم يُسهب فى هذا المجال

وإنما معناه أن الأرض على اتساعها ورغم غزارة أسرارها ، ليست المجال الوحيد لتطلع الإنسان ونشاط عقله وتفكيره .. بل الكون كله مجال هذا التطلّع وهذا التفكير

● — « إن فى خلْق السماوات والأرض ، واختلافِ الليل والنهار لآياتٍ لأولى الألباب » ..

وعلى الضمير الإنسانى أن يستشرف ..

وعلى العقل الإنسانى أن يفكر

عليهما معاً أن يتهيّآ لرحلة لا تنتهى إلا حيث يجدان نفسيهما أمامَ المطْلَق الأعظم وجهاً لوجه

● — « وأنّ إلى ربك المُنْتَهى »

إن الوعى الدينى لقضية المعرفة يبلغ فى القرآن وعند الرسول محمد أوْجاً فريداً

ولن نجد ديناً أهاب بالعقل وبكل قُوى الذكاء الإنسانى لكى تأخذ دَوْرها الريادىّ فى موكب الحياة وقافلة البشر ،

مثلما فعل القرآن ومثلما فعل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

لقد أعلن القرآن أن محمداً خاتَم الأنبياء

لقد أُرسيت بصورة نهائية قواعد الخير الأسمى والارتقاء الروحى للجنس البشرى كله

ولقد قال الوحى وقالت النبوّة كلمتهما الهادية والفاصلة فى كل القيَم التى تُشكِّل معراج البشرية إلى كمالها المَقدور

فليتقدم العقل ، وليحمل المشعل الذى هيأه له الله ، وليذهب ذات اليمين وذات الشمال ، باحثا وفاحصاً ومُنشئا

* * *

ولكى يتهيأ الضمير الإنسانى لحمل المسئولية كاملة فقد مضى الإسلام يزكِّى ويدعَم حرية الضمير . .

وفى وضوح كامل بدأ هـــذا الدّعم بإعلانه أن « حرية الضمير » ليست منحة بل حقا . . وليست نافِلةً بل ضرورة

أجل ، فحين أعلن الإسلام مسئولية الإنسان عن أعماله أعلن فى نفس الوقت ولنفس السبب ، حرية ضميره . . إذ أن المسئولية لا تكون إلا حيث يستطيع الإنسان أن يختار

وصحيح أن الإسلام تحدَّث عن القـدَر الإلهى ، وجعل الإيمان به محتوما

ولـكن القـدَر فى مفهومه السوىِّ ، لا يعنى إلغـاء الاختيار الإنسانى

فالقـدَر أولا ، وقبل كل شىء ، إنما يتمثل فى تلك القوانين والسُّـنن التى جعلها الله قِياما للـكون وللحياة

ومن هذه القوانين

● — « ولا تُجْزَوْن إلا ما كُنتم تعملون »

وإنه فى الوقت الذى رفع القرآن بيمينه — الإيمـان بإرادة الله المطلقة ، رفع بيمينه الأخرى — وَكِلْتا يديه يمين — الإيمان بمسئولية الإنسان

● — « كُـلُّ امرِىءٍ بما كَسَب رَهين »

● — « ولِـكُلٍّ درجاتٌ مِمَّا عمِلوا »

● — « اليوم تُجزَوْن ما كنتم تعملون »

● — « وأنْ ليس للإنسان إلاَّ ما سعَى »

وإنه لَسـدادٌ عظيم أن يعمل الناس فى ظـل إيمانهم

بقدَر الله ، وحقهم فى الإرادة والاختيار

— فحتَّى لا يُمارسوا اختيارهم فى فوضى وجهالة ، يذكرهم القرآن بأن الله قد جعل لكل شيء قدراً ، وأن كل خروج على السُّنَن التى وضعها الله ، ليس إلا انزلاقا نحو الهاوية

— وحتى لا يُمارسوا اختيارهم فى غرور وجبَروت يذكرهم بأن لله قَدَراً يستطيع أن يكْبح جماح كل غرور وكل جَبروت

— وحتى لا يجبُنوا عن مُمارسة اختيارهم ، يخبرهم أن سعيهم فى الحياة مقدور . . إنه قدَر ، وهل هناك أقوى من القدَر . . فليتقدم كل إنسان إذن فى طريق حياته يكشف خبْأه ، ويفُضُّ مجهوله وهو فى مثل قوة القدَر . . إن القرآن يقول :

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله »

فإذا كانت مقاديرنا تنتظرنا على النّسَق الذى أرادته إرادة الله الغالبة ، فلماذا نمضى نحو هذا المقادير على وجَل . . وهل أُخْفِيت عن الناس مقادير حياتهم إلا لكى يمارسوا ذكاءهم واختيارهم على أوسع نطاق وأشجعه . . ؟

لقد ترك الله للإنسان مجال نفوذ رحيب يُمارس فيه اختياره الحر الرشيد

وصان من أجل هذا حرية ضميره ، فأعلن القرآن أنه

« لا إكراه فى الدين . .

« قد تبيّن الرُّشْد من الغَىِّ »

وكان دائب الحرص على أن يبين وظيفة المرسلين ، ويُلزِمها بأن تُدْخل فى كل حسابها ، حرية الضمير.

ومن ثَمّ ، فالرسول — كل رسول — ليس إلا مُبلّغا كلمة الله ، ومُبيِّنا طريق الرُّشد

● — « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »

فاللسان والقول والكلمة — هى أداة البلاغ ، ووسيلة الإقناع.

أما بعد هذا ،

فـ « لَسْتَ عليهم بِمُسَيْطِر »

« إنْ عليك إلا البلاغ »

« وما أنتَ عليهمْ بجبّـار »

* * *

وبعـــــد . .

فهكذا تلقى الضمير الإنسانى آخر كلمات الدين . . الدين كله ، منذ أول رسول ، حتى آخر المرسلين . .

ولقد كان لكل رسول منهجه التشريعى الذى يلائم بيئته وعصره ومجتمعه

لكن الأديان جميعا ليس بينها من تفاوُت فى إدراك جوهر الخير . .

هذا الجوهر الذى تمثّل فى القيَم العليا التى أجمع عليها الأنبياء ، والمصلحون ، والبشرية كلها

لقد أفرغ الدين على هذه القيم نوراً لا يخبو أبداً

* * *

وذات يوم ، رحل محمد عليه السلام عن دنيا الناس ، بعد أن رفع — عاليا — مِشعل الهدى والخير ، وبعد أن نادَى الضمير والعقل ليأخذا مكانهما فى قيادة القافلة الإنسانية ، وليحملا المسئولية كلها ، فى رعاية الله ، وفى هدى كلماته

في عصر العقل

إن كلمة « العقل » هنا ، لا تعنى الضِدَّ أو النقيض لكلمة « الإيمان » . .

و « عصر العقل » الذى نَتتبَّعُ رحلة الضمير خلاله ، لا يعنى العصر الذى انفرد وحده ، ودون بقية العصور باحترام العقل وتحكيمه . . كما أنه لا يعنى العصر الذى خلا من الإيمان

ففى كل العصور كان الإيمان والعقل يعملان معا تارة ، ومنفردين تارةً أخرى.. والحضارات الشامخة التى قامت فى الماضى البعيد ، فى مصر ، وآشور ، وبابل ، والفرس ، والصين والهند ، وفى سَبأ . . كانت الثمار الحلوة لتعاوُن الإيمان والعقل فى بناء الحياة . .

عصر العقل إذن — كما نعنيه — هو العصر الذى سادت فيه المعرفة التجريبية . . العصر الذى يستمدُّ أحكامه من التجربة الموضوعية ، والذى اقتحم بملاحظاته ومُختبراته مناطق المجهول وكشف أسراره ، والذى جعل هدفه ، سيطرة الإنسان على الطبيعة ، وعلَى شئون عالَمه

ولقد نادى الضميرُ العقل إلى مكان القيادة حين أحسّ حاجة الإنسانية إلى كلمته وحِذْقه .

وإذا كان الضمير الإنسانى حديد البصَر بالمقادير الجديدة لبنى الإنسان ، فقد أدرك فى الوقت المناسب حاجة البشرية لكل قُوى العقل وكل إنتاجه .

لقد رأينا كيف تلقّى الضمير من الإسلام ورسوله ، هذا الدرس . . درسَ الإهابة بالعقل الإنسانى كى ينظر فى ملكوت السماوات والأرض ، وكى يتقدم ليحمل مسئوليته عن حماية القِيَم العُليا ومسئوليته عن بناء الحياة .

وعصر العقل بمفهومه الواسع ! لم يبدأ فى أوروبا ، ولا فى عصر النهضة ..

إنما بدأ فى ظِلِّ الحضارة الإسلامية بَدْءًا من القرن السابع الميلادى .

بدأ ، يوم شرع علماء الإسلام ومفكروه ، يُحكّمون العقل حتى فى مقدساتهم الدينية .

ثم يوم جاء جابر بن حيان ، والخوارزمى ، والكِندى وثابت بن قُرّة ، والرازى . . يضعون أسس علوم الرياضة ،

والفلك ، والـكيمياء ، والجبر ، والطب .

يوم كان « ابن الهيثم » ينشئ ، ويضع أُسُس علم الضوء الحديث كله . .

أيام كان « الفارابى » يشيد « مدينته الفاضلة » . .

أيام كان المعتزلة يحكمون العقل فى النصوص المنزّلة . .

وكان « إخوان الصفا » يُوجِّهون حركة العقل فى قوة نحو طبائع الأشياء . . ويلخصون منهجهم العلمى فى وجوب معرفة كل شيء عن كل شيء .

فعن حقيقة الشيء ، يسألون : ما هو . . ؟

وعن مقداره ، يسألون : كم هو . . ؟

وعن صفته ، يسألون : كيف هو . . ؟

وعن نِسْبِيَّته ، يسألون : أى شيء هو . . ؟

وعن مكانه أو درجته ، يسألون : أين هو . . ؟

وعن زمانه ، يسألون : متى هو . . ؟

وعن عِلَّته ، يسألون : لِمَ هو . . ؟

وعن تعريفه ، يسألون : مَن هو . . ؟

وأيام كان « ابن سينا » يشيد فلسفته على أساس من

تقديس العقل ، واعتباره أعلى قُوى النفس، ويُناقش «أرسطو» وفلاسفة الأغريق جميعا مُناقشة النِّـد للنِّد ، قائلا : —
« إن لنا عقولا كعقولهم » ..!!

ويُعلن أن القدر الإلاهى لا يعنى التدخل فى الحياة العادية للناس ، إنما يعنى سلطان القوانين الـكونية التى سنَّـها الخالق العظيم وجرَيانَها فى نواميسها

ويُحيِّي إرادة الإنسان وعقـله ، وينادى بأن مصير البشر رهن بما تستطيع الإرادة والعقل أداءه فى حرية واختيار

● — «حسبنا ما كُتب من شروح لمذاهب القدماء، وقد آن أن تـكون لنا فلسفتنا ورأينا »

وأيام كان « ابن باجَه » يحرر الفلسفة من سيطرة الجـدَل الأرِسْطى ، ويأخذ بزمامها من التفـكير المثالى والخيالى ، إلى التفـكير العلمى

وأيام كان هناك « ابن رشد » يُصحح أغلاط الفـكر ، ويُنمى أرْصِدته ويُعلن أن الحقيقة مُقدسة وأن التقليد عصا العميان ، وأن العقل مُعلِّم وإمام

وأيام كان « ابن النفيس » يكشف الدورة الدموية لأول مرة

و « وابن البيطار » يضع أُسُس علوم النبات

و « البيرونى » يذهل الدنيا بعقليته التى لا يكاد التاريخ يعرف لها نظيراً . .

أيامئذ ، بدأ عصر العقل .. وكانت البداية رائعة . ومن ثمّ فقد انتشر نورُها . . وظلّ عصر العقل يتكوّن وينمو حتى جاءت المرحلة التى بلغ فيها جيَشانه العظيم مُحْدِثاً فى الحياة الإنسانية تلك التغييرات الكبرى وكان المسرح فى هذه المرحلة — أوربا . .

ولم يلبث العقل إلا قليلا حتى تحوَّل إلى « عِلْم » وصار عصر العقل ، عصر العلْم ، وعَصْرَ الإنسان أيضا . .

وفى هذا العصر سيُلاَقى الضمير الإنسانى مَوْجات عنيدة من التَّحدى والتَّمرد . . بيد أنه لن يكون منها جَزِعًا ولا بِها يائسا . بل سيحتفظ بهدوئه وتفاؤله ، مؤمنا بأن العقل الذى من حقه أن يعرف كل شئ ، سيعرف الحق ويهتدى إليه .

وفى عصر العقل هذا — عصر التغيرات الكبرى ، سيبلغ الضمير الإنسانى أمره ، وسيكون العقل أداته فى الإجهاز على الكثير من عوائق التخلف البشرى .

ويبدأ عصر العقل فى أوربا ثورانه وجيشانه ضد الدين أو بتعبير أصح ضد التدين ، سيما المسيحى منه ..

ولقد كان موقفه ذلك رد فعل يكاد يكون محتوما ، للقرون الكالحة التى انحرفت فيها الكنيسة عن رسالتها ، وجعلت من نفسها « مطرقة » تحطم فى وحشية كل ما هو جميل فى الناس وفى الحياة ..

وحسبها من خطاياها يومذاك ، محاكم التفتيش — هذه المحاكم التى بدأت ضد مسلمى أسبانيا ويهودها ، ثم مالبثت أن أدارت وجهها الباسر وعدوانها البشع نحو المسيحيين أنفسهم ، فراحت تقتلهم ، وتدفنهم أحياء زاعمة فى سخرية ماجنة ، أنها لا تقتلهم وإنما تخلص أرواحهم .. !!

ولقد تعذب « الضمير الإنسانى » من تلك المشاهد عذابا أليما .. ولكنه كعادته اتخذ من بلائها مزية عظمى ، فصنع من كوارثها آخر مسمار فى نعش

« التعصُّب المنظّم » ..

لقد كان « التديُّن » شيئا مختلفاً عن « الدين » ..

وعادت الطقوس والأشكال تأخذ مكان الروح والجوهر

ولما كان الشك من وسائل العقل ، فقد اتّجه الشّك أول ما اتّجَه إلى تلك القوة التي كانت تسيطر على كافـة شئون الإنسان ، وهى قوة رجال الدين وسلطانهم .. وحُمِّلَ الدين فى ضوضاء المعركة أوزار المحترفين الذين يأكلون به ، وأوزار الخرافات التى تطفّلَت عليه

ولـكن الضمير كان رابط الجأش مطمئناً إلى أن نَقْعَ المعركة سيتبدَّد آخر الأمر ، آخذا معه الباطل ، وستبقى قضية الإيمان ثابتة ظافرة هادية

فالشك المستنير لا ينال من الإيمان بالله منالا

ويومئذ كان الفيلسوف الذى جعل شعار العقل والمعرفة « شكّ لتعرف » ..

كان هـــــذا الفيلسوف — ديكارت — نفسه ، يقول أيضاً :

— « أجد فى نفسى فـكرة عن الله كجوهر لا حدود له ..

« خالد ثابت لا يتغير . . عالم بكل شيء . . به خُلِقْتُ أنا وسائر الأشياء . .

« فهل من المعقول أن تنبثق هـذه الصفات العظمى الفائقة من الطبيعة الناقصة المحدودة التى أراها فىّ . . . ؟

« لقد عَـبَرْتُ الثغرة القائمة بين نفسى ، والحقيقة الخارجة عنها ، وينبغى أن أُسَلِّمَ بوجود لله الـكائن الوحيد الأعظم » . .

* * *

إن البشرية فى صحوتها ، تريد أن تُنحِّىَ عنها كل ما يُقيد روحَها ، وتريد أن تختار بنفسها شروط حياتها

أفيضير ذلك الدينَ الحقَّ فى شيء . . ؟ ؟

كلا . . وإنما يضـير السلطات المنتفعة بالدين ، ومن ثم نراها تُطارد العقل بتهمة المروق والإلحاد . . ثم بتهمة هـدم التقاليد

ذلك أنهم يريدون من العقـل أن يلبس مُسوحهم ، ويتبنى أهواءهم

يريدون منه أن يتنازل عن كل شكُوكه ، واستفساراته ، ويُلقى بكل ما فى جعبته من علامات الاستفهام فى قاع المحيط

ولكن العقل يرفض هذا ، ولا يتخلَّى عن الشك أبداً ،
فهل يجيء اليقين إلا من الشك . . ؟

هل اكتشف « سقراط » يقينه إلا حين أخذه الشك
فى خرافات قومه . .

هل وجد « المسيح » يقينه إلا بعد أن أخذه الشك
فى أكاذيب كهنة أورشليم وما حولها . . ؟

هل وجد « الرسول » يقينه إلا بعد أن أخذه الشك
فى ضلال عُبّاد الأصنام فى مكّة . . ؟

إن انعدام الشك الذكىّ ليس سِمَةَ الهدى بقدر ما هو
علامة انحطاط قُوى الروح والعقل . .

وإن عصر العقل يعني « عصر البرهان » . . وكل حقيقة
لها برهان لا ضَيْر عليها من الشك والتّساؤل

والضمير الإنسانى يحسُّ المغانم الجليلة التى ستُتاح للبشر
حين يتحرر تفكيرهم ، وخيالُهم ، وإرادتهم ، وحقهم
فى التجربة والاختيار .

ولا سبيل لهذا التحرُّر ما دام التعصُّب قائما . .

والتعصب لا يرحل ، إلا حين يصير الشك الذكى مُباحاً مشروعا

وليس فى هذا ما يضير الدين الحق ، بل فيه ما يدْعَمُه ، ذلك أنه إذا كانت مهمة عصر العقل أن يُهيىء الإنسان ليُحْكم سيطرته على الحياة والطبيعة ، فبهذا تقرُّ عين الدين وينشرح قلب الإيمان

وإذا كان الوحى قد سار بالعقل طويلا ، فقد كان بهذا يُعِدُّه للسير بعد ذلك وحده مُزوَّداً بالْباقيات الصالحات التى غرسها الوحى فى الضمير

أما عرْقلَة العقل ، وشدّ خُطاه بتلك التفسيرات المثبطة فأمر أدرك العقل والضمير أنه مُجافٍ لروح الدين ، ومن ثَم لم يربطا مصيرهما به . .

لقد كان « جاليليو » صادقا وهو يقول عام ١٦١٣ فى رسالته إلى الأب « كاستيلى » أستاذ الرياضيات فى « بيزا »

— « إن معرفة الله ، واكتشاف الطبيعة ممكنان عن طريق العقل والرياضيات . .

« ولهذا يجب تفسير الكتب المقدسة بالأسلوب الذى

لا يجعلها مُناقضة للنتائج التى تأكدنا منها ، وتثبّتنا من صحتها »

وأدرك « سبينوزا » وَجْه الصواب وهو يقول :

— « إن الخير الأعظم فى كشف العلاقات التى تربط العقل بالطبيعة كلها . . فكلما ازداد العقل معرفة ، كان فهمه لغاياته وغايات الطبيعة أفضل . . ومن ثَمّ يصير أقدر على تحرير نفسه من الأشياء التى فقَدت جدْواها — تلك هى الطريقة كلها » . .

* * *

وكما طورد العقل بتهمة الإلحاد والمروق ، طُورِد كذلك بتهمة هدم التقاليد الموروثة الفاضلة . .

تُرى ، من الذى جعلها تقاليد ، وفاضلة . . . ؟ ؟

أليس هو الضمير والعقل . . ؟ !

ثم ما هى التقاليد . . ؟

أليست أسلوبَ الحياة الذى يصنعه الناس لأنفسهم خلال انهماكهم جميعاً فى كدْحِهم من أجل العيش ، والتقدم والمعرفة . . ؟ ؟

كيف إذن تأخذ صورة واحدة جامدة لا تتغير ، ولا تتطوَّر . . ؟؟ ! !

ألا إنه كم من تقليد فاضل ، لم يصر تقليداً ، ولا فاضلا إلا بعد أن أخذ مكانَ تقليد آخر سبقه . كان هو الآخر فاضلا . . ! !

سيشك العقل إذن فى كل ما يحلو له أن يتعرف إليه بشكوكه

وصحيح أنه سيَجْنَحُ بشكوكه أحيانا للمبالَغة المُسْرفة والتطرف الوعر

ولكن ، رغم هذا لَن تقدر تِلالُ شكوكه على أن تطمرُ تحت ترابها حقيقة واحدة ، بل ستخرج الحقائق من هذا الاختبار العسير أكثر ألقا ، وأشدّ تماسُكا

وصحيح أن عصر العقل سيقترف نفس الخطأ الذى جاء ليُصلحه . .

فسوف نراه يُغالى فى تقدير منهجه وأدواته . . سنراه يُسرف فى إصدار أحكام نهائية بينما هو يستمدُّ بصيرته من عدم ارتياحه للأحكام النهائية . . ! !

سنراه يتورط ، فيخلع « المُطلَقات » على أشياء نسبيَّة ، ويَمنح « الدَّيمومَة » لعمليات زمنية زائلة

بيد أنه رغم هذا ، ستَبقى له مزيته التى ستحميه من هذا الخطأ وتردُّه عنه . . هذه المزيَّة المتمثّلة فى إيمانه بأن الذكاء الإنسانى هو الذى يأخذ على عاتقه حلَّ مشكلاتنا . .

وهنا يردد — طاغور — إحـــــدى أناشيد الضمير العذبة المضيئة . .

— « . . إن الـكمال شيء وراء طاقتنا ، إنه يعنى النهاية . . ونحن أبدا فى سفرنا الطويل نحاول الاقتراب من غايه تبتعد عنا دوْما . .

«إننا على كثرة ما معنا من معرفة وخبرة ، لا نعرف عن أسرار الحياة إلاَّ النزْرَاليَسِير . .

« ومع هذا فإننا نملك القدرة على الإبداع والخلق ، لأن فينا قبَساً من روح الله ، الخلاق العظيم »

* * *

وللذكاء خطره . .

ومن ثَمَّ فإن وَضع الزمام فى يده يزيد من التبعات

الملقاة على الضمير ، ويدعوه لمضاعفة يقظته وحراسته

وفى عصر العقل ، تعرضت العلاقات بين الضمير والعقل إلى توترات وأزمات كثيرة . . بيد أنها فى النهاية كانت ولا تزال تنتهى إلى وفاق رائع ومكين . .

إن فترة الجيشان المرتفع فى عصر العقل ، كانت مظهراً واضحاً لإرادة الضمير فى تغيير وجه الحياة تغييراً تتحقق فيه وخلاله كل المبادىء التى نادت عبر القرون بهذا التغيير ، وصاغت بعض نماذجه . .

من أجل هذا ، سنرى الضمير الإنسانى يحوّل تلك المبادىء والاحتياجات إلى قوات اجتماعية ، وإلى وحدات مُقاتلة تخوض المعارك لتُحرزَ انتصارات نهائية ضد قوى التخلُّف والبلىَ .

وتدور محاولات الضمير حول المعيار الذى اختاره ليطابق به بين الناس والحياة .

وكان هذا المعيار متمثلا فى الحرية ، والعدل ، لقد شهد عصر العقل هذا فى ضُحاه المحتدِم الجيَّاش . . شهد جميع « الإنسانيات » التى أحرزها الوعى الإنسانى طوال الأحقاب والقرون ، تنطلق فى مهرجان حافل فتنطلق معها مقادير التطور وقواه

من مكامنِها ، وتملأ حياة البشر بتغاريد المستقبل الواعِد .

واتخذت هذه « الإنسانيات » من الحرية والعدل قاعدتها ، ومنطقها ، وشِريانها .

فباسم الحرية والعدل ، ستهُب الطلائع الظافرة لتتخلص من الإقطاع ، ومن الاستعمار ، ومن تجارة الرقيق . .

وباسم الحرية والعدل ، ستقوم الثورات من أجل حقوق الإنسان .

وستتقرر حرية الضمير ، وحرية الإرادة ، وحرية الفكر ، وحرية الاختيار .

وستتوالى مَوْجات الجيشان الذكى الواعى ، فتقاوم سيطرة الاحتكار والثَّراء غير المشروع ، وتدفع الجماهير الكادحة إلى مُستوَى كـدْحها وَحقِّها ، وتبزغ الديمقراطية حاملة معها مشيئة الضمير فى تكريم الجموع الإنسانية بجعلها مصدر الحكم ، وصانِعة الحياة .

ويَصير احترام الشخصية البشرية وتقديس حقوقها وواجباتها ، هو جُماع الخير ، وذروة الفضيلة .

وسيكون للفلسفة بلاؤها العظيم ، ودورها الجليل فى التعبير

عن مشيئة الضمير وإنجاز مَهامِّه .

لقد أعلنت الفلسفة أن الشئون الإنسانية كلها هى موضوع الفكر الإنسانى ومَجْلى نشاطه . . وما دام الفكر هو الأداة ، وهو الوسيلة ، فلا مَناص من أن تتوفر له الحرية الكافية لتكوين مادّته ، وإلقاء كلمته .

ولئن كان « كونفشيوس » قد قال قبل الميلاد بخمسمائة عام :

— « إنى لا أملك لك شيئاً ، إذا كنت لا تستطيع أن تقول . هذا رأيى » . . ، فإن الضمير فى عصر العقل خاصّة ، يجعل من هذه العبارة نهجاً مقدساً ، وهكذا رأيناه يدفع كل حكمة العصر إلى دَعْم هذا الحق الجليل .

فليرفع « مونتين » صوته عالياً :

● — « علينا أن نفحص كل شىء ، وألاّ نُدخل عقولنا شيئاً لمجرد أنه عُرف مُقرر . .

« علينا ألا نعتنق مبادىء أرسطو ، أو الرواقيين ، أو الأبيقوريين دون أن نفحصها ونختار منها . .

« إن من يتبع الآخرين بغير هُدًى من تفكيره واقتناعه لا يتبع شيئاً ، ولا يعثر على شىء . .

« نحن لَسْنا رعايا ملِك ، فـــدَعوا كل واحد منا يطالبْ بحريته . .

« إن الصدق والمنطق حق لـكل إنسان ، وليسا مِلْـكاً خالصاً لمن ينطق بهما لأول مرة . إنما هما مِلْك لـكل من يَقدر عليهما . .

« إن النحل تمتصُّ الشهد من هذه الزهرة ومن تلك ، ثم تخرج من بطونها شرابها هي . . وشَهدها هي . .

« ألا وإننا لنجعل من عقل الإنسان شيئاً خسيساً وجباناً إذا لم نسمح له بحرية الابتكار والإبداع » . . !!!

وإذا كانت الآراء البنَّاءة المُضيئة لا تُوجد على قارعة الطريق ، فلابد للبشرية أن تقرأ كثيرا ، وتعرف كثيراً فمسئولية البشر تِجاه بناء حياتهم ، لايضاهيها سوى مسئوليتهم تِجاه تزويد عقولهم بالمعرفة الصحيحة .

وهنا يتحدث « برجسون » . .

● — « يجب أن يبتدىء كل واحد منا كما بدأ الجنس البشرى بذلك الطموح النبيل لمعرفة كل شىء . . فهنا على وجه

التحديد يكمن الفارق الحق بين الفكر والغريزة .. بين الإنسان والحيوان ..

« إن الحيوان يستطيع أن يفعل شيئاً واحداً بشكل يثير إعجابنا ، ولكنه لا يستطيع أن يصنع شيئاً آخر سواه » ..

أَجَلْ .. إن فقدان التنوُّع ليس مزية إلا لحياة السوائم وحدها ، لأن الغريزة ، لا العقل هى التى تقودها .

أما الإنسان ، هذا الذى أعطاه الخالق الجليل عقلا لا تنتهى عجائبه ، فإنه مهما يجنح به التخصُّص إلى جانب من جوانب المعرفة يظل قادراً على أن يُدير خواطره على كل شىء ، ويصنع بعقله المعجزات ..!!

وإذا كان عصر العقل هذا ، لن يدَعَ حجرًا من حجارة الأرض حتى يعرف فصيلته وعمره فى التاريخ .. وإذا كان لن يدَع بحرا ، ولا نهراً دون أن يعرف نوع أسماكه وطَحالِبه .. وإذا كان لن يدَع الفضاء سرًّا مخبوءاً دون أن يعرف عدد نجومه ، ويتعرّف إلى سكّان كواكبه .. فإنه من باب أولى ، لن يدع أفكاره وآراءه ، وعقائده تُملَى عليه ، ولن يدَع حقّه

فى تكوين اقتناعه ، والبحث عن الحقيقة يخضع لأى تأثير .

وهكذا ، وفى القرن السابع عشر ، تصبح كلمات « ملتون » على كل لسان .

● — « أطلقوا رياح جميع العقائد والأفكار لتغدُو على وجه الأرض ، ولتكُن الحقيقة بينها فى المعركة ، فإننا بحظرنا لها ، وتحكُّمنا فيها نرتكب إثماً ونصنع أذى كبيراً .

« دعوها تتصارع مع الكذب .. فهل رأى أحدُكمُ الحقيقة يوما قد خسرت قضيتها فى صراع حُرٍّ مكشوف » .. ؟!

* * *

إن الضمير يُجنّد كل الذكاء الإنسانى يومذاك لكى يحرر الفكر من كل سيطرة ووصاية .. سيّما وصاية الكنيسة التى كان لها على العقل سلطانٌ باطش .

إنه يرفع لواء حرية الفكر ، وحرية القول ، لأنه بهذا سيذهب الموكب البشرى إلى غايته البعيدة فى خَطْوٍ ثابت ظافر .

وإنه ليريد ألاّ يعتمد رأى مّا على القهر والتحدّى ، لأن كل فكرة وكل عقيدة تعتمد فى إثبات وجودها على القَهْر والإرْغام ، فإنها تحكُمُ على نفسها بأن حظها من العقل ، ومن الصواب ضئيل ، بل مفقود .

ثم إن حرية الضمير التى تتمثَّل فى أن تكون هناك حُرُمات مَصُونة لحق الاختيار ، وحق الاقتناع ، هذه الحرية تُضحى هَبَاءاً حين يكون ثَمَّت نُظم أو عقائد تُصِرُّ على أن تفرض نفوذها قسْراً وإكراهاً .

وهكذا يجىء « جيفرسون » ليقول :

● — « عندما مَنَحَ الله آدمَ العقل ، أعطاه الحرية ليختار ، لأن العقل هو الاختيار . .

« إن الحقيقة والإدراك ، ليسا سِلْعتَيْن تخضعان للاحتكار وتُوزَّعان بالبطاقات .

« ألا فأَعْطِنى جميع حرياتى غير منقوصة ، ولكن أعطى حرية الضمير أوَّلا . .

« ألاَ واعلموا أننى عاهدتُ الله الكبير على أن أعادى إلى الأبد كل صورة من صُوَر الاستبداد بعقول الناس وضمائرهم » . . !!

ويرتفع صوت « فولتير » . .

— « إن الذى يقول لك اليوم : اعتقد ما أعتقده ،

وإلّا لعنَك الله . سيقول لك غـــــدا : اعتقد ما أعتقده ، وإلاّ قتلتُك . .

« ولن يسودَ سلام على الأرض قبل أن يتعلّمَ البشَر كيف يتسامحون — بعضهم تجاه بعض فى كل خلافاتهم السياسية ، والفلسفية ، والدينية » . . . ! ! !

لقد عبّر عشرات من الفلاسفة والمفكرين فى تلك الأيام عن تصميم الضمير على أن يُنحّيَ عن الإرادة الإنسانية والفكر الإنسانى كل الضواغِط التى تحتَبِسُ رُؤاها وتعتاق سيرها .

وأفضى ذلك إلى التصادم مع قُوًى كثيرة كانت تُبهِظ كاهل الإرادة والفكر . . وتمّ الفوز للضمير فى جميع المعارك .

أما سيطرة الكهنوت ، فقد تقلصت ، وتقرر حق الإنسان فى أن يختار دينه ومذهبه

وأما سَيطرة الأباطرة والمستبدين ، فقد رفع الضمير فى وجهها حق الجماهير ، وناداها إلى موعدها مع الحياة

ولقد بدأ الضمير عمله الثّورى من أجل الجموع الهائلة المغلوبة على أمرها باختيار المفكر الذى سيضع لثورات التحرير السياسى فِقهَها ومَنْطِقَها الغلاّب

وكان « روسُّو » ..

كان مؤلف « العقد الاجتماعى » ..

كذلك اختار الرجل الذى سيضع لتلك الثورات أناشيدها المحركة المجلجِلة

وكان « توم بين » ، مؤلف « الفهم » و « حقوق الإنسان » ..

* * *

ولقد تحدث « روسُّو » طويلا ، وكان عقلاً بارعا وهو يُحول حرية الإنسان إلى فقه وقانون — هاهو ذا يتحدث :

● — « إذا بحثنا عن القاعدة التى يتحقق بها كل الخير لكل الناس ، والتى يجب أن تُستمدّ منها كل القوانين ، ألفْينا هذه القاعدة تتكون من أمرين مُقدسين : الحرية ، والمساواة ..

« الحرية ، لأن كل تبعيَّة خاصة ، لا تعنى نقصاً فى نفوذ من سُلبت حريته فحسب ، بل نقصاً فى نفوذ الدولة نفسها ..

« والمساواة ، لأنه لا وُجود للحرية بدونها ..

« وأنا أعرّف الحرية بأنها الحقيقة التى تجعل الإنسان

سيِّد نفسه فى ظل القوانين العادلة التى يضعها الناس بأنفسهم لأنفسهم . .

« والمساواة ليست هى الشىء الذى يجعل الناس سواء فى درجات السُّلطة والثراء — بل هى ألاّ تجاوز السلطة حدود العدل فتظلِم ، أو تتخطّى القوانين فتستبدّ . .

« وهى أيضا ، ألاّ تكون هناك قِـلَّة تملك منَ الثراء ما تستطيع أن تشترى به مُواطنين ، كل ذنبهم أنهم خلقوا فقراء . . »

والحرية أكثر قداسة من أن تكون مجرد حق شخصى

ومن ثَم فهى ليست ممتنعة عن إرادة سلْبها فحسب ،

بل وممتنعة عن إرادة التنازُل عنها أيضاً

فلا يستطيع إنسان مّا أن يتنازل عن حريته طائعا

وفى هذا يقول « روسُّو » أو يقول الضمير الإنسانى على لسان « روسُّو » :

● — « إن تنازُل الإنسان عن حريته ، يعنى تَنازُلَه عن صفة الإنسان فيه . . ويعنى تنازُلَه عن كل ماله من حق ، وما عليه من واجب . .

« وتنازُلٌ كهذا يُفقِدُ صاحبه الحقّ فى أىّ تعويض . .

« وتنازلٌ كهذا يناقض كل طبيعة الإنسان . .

« ونزع الحرية من إرادة الإنسان يعنى نَزْعَ كل فضيلة من أعماله . .

« وإنه لعهد باطل ، كل عَهْد يُجيز قيام سلطان مطلق من ناحية ، وطاعة لا حدَّ لها من ناحية أُخرى »

وهـذه القاعدة المتمثـلة فى الحرية والمساواة لا يُترك مصيرها للأريحية ، أو الهوَى ، بل يجب أن ينتظمها عهْد ويحميها القانون.

والعهد الذى تشترك فيه الحـكومة والشعب ، لا يعطى الحـكومة أى امتياز يجعلها فوق الأمة أو فوق القانون

، والآن ، مع « روسُّو » مرة أخرى

● — « إن كل عهدِ سيادة — أعنى العقد الذى أثمرته الإرادة العامة للشعب ، ليس عقدا بين الأعلى والأدنى . . بل هو عقد بين أطراف متكافئة ، لأن الإرادة العامة لـكل المواطنين ، هى التى صاغَتْه والْتزَمته » .

والقوانين يسنُّها الشعب بأجمعه عن طريق ممثليه المختارين

واقتراعِه الُحرّ — وبذلك يتوفر لها الصلاح والتوقير .

● — « إن جميع الشعب إذا سنّ القوانين من أجل جميع الشّعب ، لم ينظر حينئذ إلا إلى نفسه ومصلحته .

« وما دام غرض القانون عاما ، فلا ينبغى أن يكون واضعه فردا ، ولا أن تـكون غاياته شخصية .

« وليس معنى هـذا أن القانون الذى يضعه الشعب لن يعترف بوجود امتيازات .

« كلا — ستـكون هناك امتيازات . . ولـكن لَن يُنعم بها على شخص باسمه ، ولا على طبقة بذويها » .

هكذا تحدث « روسُّو » .

والقوانين التى تَنْبَلِجُ من مثل هذا العقد ، والتى يضعها مُمثلون مختارون من الشعب لها قداسة تجعل تخطِّى الحـكومة لها عملا خطير العواقب ، ولـكى تظل سيادة القانون قائمة ينادى « روسُّو » بضرورة الفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية .

● — « لا ينبغى لمن يحكم ، أن يضع القانون .. ولا ينبغى لواضع القانون أن يكون هو الحاكم . . فإذا صارت الـسلطة

تنفيذية وتشريعية معاً ، يصبح القانون فى خدمة الهَوىَ ، وليس فى خدمة المصلحة العامة . .

« إن روما وهى فى أزهى عصورها شهدت انقضاض كل عواقب الطغيان عليها ، واستسلمت فى عجز لقُوى الإبادة والتخريب ؛ وذلك لجمعها السلطة التشريعية والتنفيذية فى بضع أيد حاكمة — » .

ويرى « روسُّو » أن الحكومة والشعب يحتاجان إلى وظيفة سياسية لها خطرها وفائدتها . ويسميها « المحاماة عن الشعب » ويعنى بها — « المُعارَضة » التى يشترط أن تكون نزيهة وأمينة ، وألا تجعل اقتناص الحكم غَرض حياتها أبداً . . لأنها إذا أدركت جلال مَنشاها عَلمتْ أنها أعظم من الحكومة

بل إن « روسُّو » ليُبالغ فى فَرض التبتُّل على المُعارضة فيعلن أنها لا حق لها فى الحكم ، ولا فى سنِّ القوانين ..!!

ما عملُها إذن . . ؟

إنها حارس البُرج . . إنها الديدَبان الذى يُهاجم الأخطاء ويُنادى الحكومة والشعب إلى واجباتهما

ها هو ذا « روسُّو » يقول :

● — « .. وليست — المحاماة عن الشعب — قسماً مكوّناً للمدينة ، أو الدولة — ، ولا ينبغى أن يكون لها نصيب فى السلطة التشريعية ، أو فى السلطة التنفيذية ، ومع هذا ، فإنها صاحبة سلطان عظيم ، وسلطانها لا يتمثل فى الفعل ، و إنما يتمثّل فى المنع ، فهى قادرة على منع كل خطأ . وهى كمدافعة عن القوانين تُعتبر أقدسَ وأجل من الأمير ومن الحكومة معاً » .

* * *

ويَمضى « روسُو » فى تعبيره عن مشيئة الضمير الإنسانى واضعاً تصميم الحريات السياسية والحكومات الصالحة ، والمجتمعات القوية .

ولئن كانت أفكاره قد خضع بعضها فيما بعد لتعديلات كثيرة وضرورية ، إلا أن جوهر تلك الأفكار عاش وسيظل ناصع الحجّة باقى الصوّاب .

* * *

ويُدوِّى صوت « توم بين » مُبلغاً إرادة الحياة

● — « إذا كان للحياة الإنسانية أى معنى فهو هناك — فى كرامة الكائن البشرى » .

● — « والآن ، يا من تحبون الجنس البشرى ، انهضوا ..

« إن الضغط والاضطهاد ليعصفهان بكل بقاع العالَم القديم ..

« وإن الحرية لَتُطارَدُ حول الكرة الأرضية كلها ، فهيا استقبلوا الطريدة اللاّجئة » .

الطريدة اللاَّجئة .. ؟؟؟

أى معنى للحياة الإنسانية إذن ، إذا صارت الحرية طريدة ولاجئة .. !!

ألا تصبح كل الحياة وكل أحيائها الأنانِىّ فى خطر وبيل .. ؟

لابد إذن من مُواجهة حاسِمة

لابد أن تُذعِن كل القلاع العتيقة المزمِنَة فى عداوتها للحرية ،

لابد من أن تُذعن لكلمة الضمير .. وتفسح الطريق للعالَم الجديد المُقبل .

أرافضةٌ هى أن تُذعِن . . ؟

أمصمّمة هى على البقاء وقد فات أوانُها ، وجاء أجلُها ،

فلتذق إذن وَبالَ أمرها . .

وهكذا ، ومع هذه الرياح الصادحة ، نهضت الثورتان الكبيرتان — ثورة الحرية فى أمريكا . . وثورة حقوق الإنسان فى فرنسا .. وهَبَّت بعدهما ثورات التحرير فى كل مكان . . ! !

● — « لو تأكد لى أن تسعمائه وتسعين أمريكياً من كل ألف سيهلكون فى — « الحرب من أجل الحرية » لأعطيت صوتى لنخوض تلك الحرب ؛ إن ذلك أفضل لدَىَّ من أن أرى بلادى مستعبدة . .

« وإنى لأعلم أن الذين سيعيشون بعد هـــذه الحرب وإن يكونوا قِلَّة ، ستولَدُ منهم أمة الأحرار » . . ! ! !

هكذا تحدث « آدمز » أحـد زعماء ثورة الاستقلال فى أمريكا .

وتمثلت فى كلماته هذه الخُطَّة التى آثرها الضمير يومذاك

— « الحرب من أجل الحرية »

« الحرب التى تَلِدُ أحداثُها عالَمـاً من الأحرار »

ولقد كانت هذه الكلمات شعار تلك الأيام : وشعار العصر الذى أهلّت معه عصور الحرية جميعا ، الشعار الذى سيدعو كل أمة أن تحارب من أجل حريتها .

ولكن ، أو لم يكن ثمت سبيل لإدراك الحرية غير سبيل القتال . . ؟

وأين دعوة الضمير الإنسانى للمحبة وحرصه على السلام .. ؟

فى تلك العصور البعيدة لم يكن ثمت سبيل للحرية بغير القتال .

وكل قتال تفرضه الأحداث للدفاع عن حقوق الحياة ، فهو عملية جراحية لابد منها لكى تدوم للسلام عافيته ، ونموّه .

والضمير ، حين أثار الشعوب ضد الجاثمين فوق مقاديرها والمستبدين بمصايرها ، كان يدرك أن المعارك ستبلغ من الضراوة مداها . . ومع هذا ، فما كان ثمت سبيل أخرى لوصل الجموع التائهة بمستقبلها . .

ها هو ذا — توم بين — يعبّر عن موقف الضمير الإنسانى تجاه مبدأ « الحرب من أجل الحرية » ، فيقول :

● — « أنا أكره الحرب . .

« إنها أسوأ الطرق لإبقاء الإنسان فى هاوية المهانة ، وجعله وحشاً ضارياً . .

« ولست أكره شيئاً على الأرض ، مثل كراهيتى للحرب .

« وإن جميع كنوز العالم فيما أعتقد ، ليس فى استطاعتها أن تغرينى بتأييد حرب عـدوانية ؛ لأنى أرى ذلك قتلا وإزهاق أرواح . .

« ولـكن ، إذا اقتحم لص بيتى ، وأحرق أو أتلف ممتلـكاتى . وهدّد حياتى ، ثم طوّقنى بإرادته المطلقة ، فهل يُطلب إلىّ أن أصدَع بأمره . . ؟ ؟

« كلا . . »

تلك هى القضية إذن . . إذا اقتحم لص بيتك وعاثَ فيه فساداً ، ووضع عنقك تحت حدّ خنجره أو فوهة مسدسه ، فلا مفر من أن تنهض على قدميك ، وتقاتل كرجُل . .

ولقد كان الاستعمار هو اللص الذى يقتحم الأوطان .

وكان الطغيان ، هو اللص الذى يقتحم الأرواح .

ولم يكن من المقاومة بُدّ .

ولم تـكن تلك المقاومة لحساب جيل من الناس ، أو أمة

من الأمم . . بل كانت لحساب المصير الإنسانى كله

● — « إن هذا لنا جميعاً . . ولأولادنا مِن بَعدنا . . فنحن الطليعة . . وليس ما ننهض به اليوم سوى بناء عالَم جديد . . »

هكذا قال « توم بين »

* * *

وهكذا شَرَع الضمير الإنسانى يبنى العالَم الجديد .

وصَحا أحرار القلوب فى كل مكان .

وأخذت أبراج الحرية تتبادل الإشارات المُضيئة .

والْتقت الرُّؤَى بالحقائق فى كدْح نبيل ، ومُخاطرات حافِلة

وتنادَت الشعوب المقهورة ، والجموعُ المستعبدة . .

— هيا يا رجال ، إن هـذا لنا جميعاً . . ولأبنائنا مِن بَعدنا —

والْتقَى الجمعان . .

الجَمع الذى يحمل من المستقبل تفويضاً ليتحدث باسمه ويضرب بِساعده .

والجَمع الذى جعلتهم ظروفهم التَّعِسة سدَنَةً لهيا كل التخلف وأطلال التسلُّطَ .

وقامت الثورات ، لا معلنة حقوق مُواطنيها فحسب . . بل حقوق الإنسان جميعاً ، وحق الناس كلهم فى السعادة الحرية والكرامة .

قامت ثورة الاستقلال فى الولايات المتحدة .

وثورة حقوق الإنسان فى فرنسا .

وثورات أوربا والأراضى المنخفضة . .

وبعد حين ، يجىء ماركس ، فيضع مع صاحبه أنجلز ميثاق ثورة كبرى من طراز جديد تندلع حين يجىء ميقاتها فى روسيا القيصرية لتبنى فوق أنقاضها « اتحاد السوفييت »

ويظهر فى الشرق « إعصارٌ مُبارك » يبذُر الثورة فى كل مكان وتتحول أنفاسه الحارّة إلى عواصف وبراكين ، ويُبثّ فى وعى الجماهير ألغامه الموقوتة التى ستنفجر فى حينها المحتوم

ذلكم هو « جمال الدين الأفغانى » رجل من أكفأ الثوار ، وكثرهم مضاء واقتداراً

* * *

لقد كان من الطبيعى أن يكون لأكثر تلك الثورات

أخطاءها ، وإسرافها ، بيد أن الغرض التاريخى الذى أسهمت جميعها فى إنجازه كان عظيما بقدر ما كان ضروريا

* * *

والآن ، لنقف طويلا مع تلك الحقبة المباركة التى حشد الضمير الإنسانى خلالها كل رُشده وعزمه ليضع ختاماً حافلاً لمأساة الرقيق

إنسان يشترى إنساناً آخر مثله .. يدفع فيه قدراً من المال لتاجرٍ شقى يسرق الناس ليبيعهم ، أو يشتريهم من آخرين فى مثل شِقْوَتِه .. ؟؟

وتبلغ المأساة ذروة بشاعتها ، أو قولوا سَفح البشاعة وحضيضها ، حين تُسَن القوانين الدولية التى تنظم تجارة الرقيق ، وتجعل منها عملا مشروعا .. !! وحين تصير لبعض الملوك والملكات فى أوربا «أساطيل بَحرية» تعمل فى خدمة تُجار الرقيق لِقاء أجور مرتفعة وأرباح طائلة .. !!!

أىُّ انحدار للبشرية .. ؟

وأين عزم الضمير الإنسانى .. ؟؟

إن مُحاولاته النبيلة عَـبْر القرون المديدة تجد آخر الأمر ختامها الحافل والحاسم

وسيتمثل ذلك أولا فى إحدى رَوائِـع الفـكر الإنسانى

وسيتمثل ثانيا فى — « الحرب من أجل الحرية » فتقوم حرب أهلية من أجل الرقيق فى بلاد سيبقى لها شرف هذا العمل الجليل

أما الفـكر الذى سيختاره الضمير هـذه المرة لإبلاغ كلمته — فصاحبه سيدة .. تعالَوْا نَنْحَنِ فى إجلال قبل أن ننطق اسمها

إنها « هرييت بِيتْشَر ستاو » ..

إنها مؤلفة « كوخ العم توم » ..!!

إنها ستتحدث .. وسيوحى الضمير إليها بكل تجربته المضنية مع هذا الوباء ، ليُشعل بكلماتها النار المقدسة فى كل قلبٍ بشرى ، حتى يطهر الأرض من شرِّ أوزارها وخطاياها ..

وسوف تضع السيدة « ستاو » على ألسنة أبطال قصتها كل وقائع المـأساة البشعة — مأساة الرق فى كل عصوره

ومرارته ، وسترسم طريق الخلاص الوديع الطيّب .

والآن . إلى أبطال كوخ العم توم لنسمع من حوارهم وثيقة من أبلغ وثائق الضمير الإنسانى .

● — « . . أنا أعلم يا جورج أنك مازلت مُتحسِّراً على عملك الذى فقدتَه ، كما أعلم أن لك سيداً قاسياً لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، ومع هذا فلا بد من أن تصبر . .

— « أصبر . . ؟ ؟ تقولين . أصْبِرْ . . ؟ ؟ ألَمْ أكُ صابراً طِوالَ هذا الشقاء . . ؟

— « بلَى ، كنت صابراً يا جورج ، وإنه لأمر فظيع ، ولكن الرجل على أية حال سيدك

— « تقولين سَيِّدى . . ؟ ! ومَن الذى جعلَه سيدى . . ؟ ! ذلك ما يقُضُّ مضجعى . . ! أى حق له علىّ . . ؟ أنا إنسان بقدر ما هو إنسان ، بل أنا إنسان خير منه ؛ فأنا أعلم منه بالتجارة ، وبالقراءة ، وبالكتابة . . ولقد تعلّمتُ ذلك كله بنفسى ، ولم يكن له أىُّ فضل علىّ فى هذا . . بل لقد تعلّمت على الرّغم مِنه . . والآن فبأىِّ حق يَنتَزِعُنى من عملى ، ويحملنى على القيام بأعمال يستطيع أى — حصان — أن يقوم بها » . .

ويفاجأ — تُوم — . . ببيع سيده له ليقضى بثمنه ديوناً آخذة بخناقه .

ولكن ، كيف يُباع تُوم وقد صار جزءاً من تاريخ هذا البيت ، وهذه العائلة ، وهذه الولاية . . ؟

وتقول له زوجته :

● — « على أية حال يا توم ، فأنا لا أستطيع ألاَّ أَلُوم السيّد عَلى بيعه إيّاك» . .

ويجيبها توم . .

— إذا كنت تُحبيننى حقاً ، فلا تذكُرى « السيد » بسوء . . ألَم أحمله على صدْرى وهو طفل صغير . . ؟ ؟ »

هذا هو وفاء وحُبٌ وأدَبُ الذين كتب عليهم أن يكونوا رقيقاً وعبيداً

أهناك ما يُصور عظمتَهم المخبوءة مثل هذه العبارة التى كشفت بها السيدة « ستاو » نفسية توم الممتلئة بهاء ووفاء وعظمة . . ! ؟

ولكن « تُوم » يُصَفَّدُ بالأغلال تهيئةً لِشَحْنه فى ركاب سيده الجديد ، وتقف زوجه وطِفلاه ينتحبون

وإذ هو مع سيده فى الطريق ، يميل به السيد ليعقد صفقة أخرى كان على مَوْعد معها

وكانت الصفقة طفلا ، ولا يكاد التاجر يمد إليه يده بالحبال ليربطه حتى تتهاوى فوقه أمُّه الوالهة ، وهى تتضرع إلى التاجر لا من أجل أن يترك لها ولدها ، — فذاك شيء بعيد المَنال . . بل من أجل أن يربطها بنفس الحبال التى يربطه بها حتى لا يفرق بينها وبين فلذة كبدها . . !!!

● — « ضعنا نحن الاثنين معاً . . ضعْنا معاً من فضلك أيها السيد . . أتوسّل إليك ، إنه طفلى الأخير الذى بقى لى من الحياة » . .

ولا يملك توم إلا أن يبكى

إن حياة الرقيق إذا سمّيت من باب المغالطة « حياة » . . لهى من الشُّوء بحيث يصعب وَصفها

لكن مؤلفة « كوخ العم توم » استطاعت أن ترسم على ألسنة أبطالها مشاهد مبكية ومُفجعة لهذه الحياة ، بل إنها لتؤكد أن دورها لم يزد على تسجيل ما كانت ترى وما كانت تسمع فى دنيا الرقيق

لقد استطاعت في إخلاص وبراءة أن تُقْلِق ضمائرَ الناس بتلك الملامح التي رسمتها المأساة

لقد كان « الضَّياع » هو المُرادف الصحيح لكلمة « حياة » بالنسبة للرقيق

ها هي ذي السيدة « أوفيليا » تسأل الأَمة « توبسي » عَن عُمرها

فتجيبها « توبسي »

— « لستُ أدري يا سيدتي . .

= « ومَن هي أمُّك . . ؟ ؟

— « لست أدري أيضاً . . لم تكن لي أم في يوم من الأيام . . ! !

= « لم يكن لك أم . . ؟ عجباً ، أين وُلدت يا فتاتي . . ؟

— « لست أدري يا سيدتي . . أنا لم أولَدْ في يوم من الأيام » . ! !

ومَلْمَحٌ آخر من ملامح الضياع القاسي الذي كتب على أولئك المساكين ، ترسمه الكاتبة على لسان « كاسي » .

● — « لسنا نعرف سبيلا سوى القبر

« إن أحقر الحيوانات والطيور لَتجد لها مسكناً ومأوى . .
حتى الحيَّات والتماسيح لها جُحورها ، وأوطانها التى تستقرُّ
فيها وتَهدأ . .

« أما نحن ، فمالَنا من مأوى . .

« وحتى حين نهرب منهم إلى ا ستنقعات ، تتعقبنا كِلابُهم ،
لِتنهشنا وتُمزقنا . .

« كل شيء ضدّنا ، حتى حيوانا تهم عدوٌّ لنا . . ! ! فإلى
أين نذهب » . . ؟ !

ولقد دوّخ هذا الضياع عقولهم وضمائرهم وملأها يأساً
وحقداً ، وفقدوا الأمل فى ثواب الآخرة وفى عدالة الدنيا
ها هو ذا « توم » يواسى إحدى الضحايا قائلا :

● — « ألا تعلمين أن يسوع سيَبسط إليك يدَ عونِه ،
وأن مَثواك الجنة ، والراحة الأبدية . . ؟ ؟

فتجيبه فى جَزع أليم !

● — « لستُ أريد الذهاب إلى الجنة !! أليست هى المكان
الذى سيذهب إليه ذووا البَشرة البيضاء . ؟ ، إنى لأفضل
الجحيم على الجنة مادمت سأجد فى الجنة سيدى ، وسيدتى » . . !!

والآن ، ماذا كان موقف الرقيق المعذّب من نكبتهم هذه .؟

إن بعضهم يقضم أسنانه من الغيظ ويبحث عن فُرص الانتقام

وبعضهم يغفر ، ولكنه يحتفظ بحقه فى القصاص أمام أى عدوان جديد

وبعضهم يلوذ بالضمير ، وبالحُبُ . .

● — أما الفريق الأول ، فترسم المؤلفة صورته فى مَشْهدٍ للأمَة المعذبة التعسة « كاسى » حيث تتأهب لاغتيال سيدها الفظ المتوحش ، فتسقيه من الخمر حتّى يفقد وعيه ، وتخبىء فأساً لتهشم بها رأسه المثقل بالقسوة ، وفى هجعة الليل تنادى فى همس خفيض .

● — « توم . . توم ، ألا تُريد أن تنعم بحريتك . .؟

= « سوف أنعم بها فى وقت قريب يا كاسى

— « هيا الآن يا تُوم ، إن باب غرفته لمشرَع .

« خذ الفأس واسحق بها رأسه ، فإن ذراعىّ ضعيفتان . .!

● — أما الفريق الثانى ، فيتبدّى فى موقف « جورج » ذلك العبد المطارَد الذى لا يريد من الدنيا إلا أن تتركه وشأنه

دون أن يَرزَأه ناسُها بأذاهُمْ من جديد

● — « إنى لن أهاجم أحدا . . لكنى كذلك لن أقف موقف المتفرج وأنا أنظر زوجتى تُساقُ بين يدى النخّاس لتُباع فى الأسواق . .

« إن الله أعطانى ذراعين قويتين للدفاع عنها وحمايتها

« فليساعدنى الله .. إنى سأقاتل حتى الرّمَق الأخير قبل أن ينتزعوا منى زوجتى وولدى ، فهل أنا فى ذلك ملوم » ...؟؟

لا ياجورج .. لستَ أبدا بمَلوُم ..!!

● — أما الفريق الثالث الذى يُؤثر الصبر ويُؤمن بأن قضيَّتهُم العادلة ستجد فوزها فى المحبة . وانتظار رحمة الله ، فمُمثِّله فى القصة هو — « توم »

فعندما دعتـه « كاسى » ليسحق بالفأس رأس سيده « ليـكرى » وهو يغطُّ فى نومه رفض توم أن يصنع . . رفض فى وقت كان جسده فيه لايزال مُتقيحا من أثر التعذيب الوحشى الذى أنزلَه به « ليـكرى » هذا ...

وأجاب « كاسى » قائلا :

● — « لا .. لا .. يا كاسى ، لن ألوث يدى بالدم ، ولو أعطيتُ الدنيا بأكملها » !!!

وترد عليه « كاسى » قائلة :

— « ولكن فكّر ياتوم فى هذه المخلوقات البشرية التى قد تُوفق فى تحريرهم جميعا من وحشية هذا السيد — ليكرى — » ..

ويُجيبها تَوم :

— « لا .. لا .. إن الخير لايجىء أبدا من الشرّ !! » إذا استطعْت فاهربى من غير إراقة دم » .

وماذا كان موقف الصفوة والسّادَة من هذه المأساة ؟ .

إن المؤلفة تختار واحدا منهم فى ضميره حياة فيفضح دخائل هؤلاء السادة ويعُلن رأيه فى جريمة الرق . . إنه فى القصّة السيد « سانت كلار »

● — « أتُريدين ياأوفيليا أن تعرفى حقيقة رأيي فى الرق ..؟

« إن المزارعين الذين يفيدون من هذا النظام .

« ورجال الدين ، الذين يتملّقون هؤلاء المُزارعين ..

« والسياسيون الذين يتصنّعون تجاهُل الرق كجريمة ، لكى تبقَى لهم مناصبُهم . .

« هؤلاء جميعا ، يملكون من الحِذق ما يستطيعون به تحريف الحقيقة والأخلاق . . بيْد أنّهم فى قرارة أنفسهم يعلمون كم هُم كاذبون . . ! !

« إن نِظام الاسترقاق رجْس من عَمَل الشيطان ، وإنه ليُمثل نموذجا بارعاً لما يستطيع الشيطان أن يصنعه فى مَجال اختصاصه . . ! ! ! »

* * *

لا بَديل للحرية . . وليس فى نعيم الدنيا كله ما يصلح أن يكون ثمناً لها ، أو عوضاً عنها

تلك هى الحقيقة التى حقٌّ على الناس — جميع الناس — أن يدركوها

وإن « توم » لَيُجلِّيها أروع جلاء فى حواره مع سيده الذى يَمُنُّ عليه قائلا :

● — « سوف أجعل منك رجلا حرا ياتوم . . ! !

= « شكرا للربِّ ياسيدى . .

— « ألا ترى ياتوم أنك عِشتَ عندنا حياة أفضل من حياة الحرية . . ؟ ؟

= « كلا ، أيها السيد ، كلا . .

— « هل كنت ياتُوم قادراً بحريتك أن تلبس ما كُنا نكسُوك ، وتَطعم ما كُنَّا نُطعمك . ؟

= « هذا صحيح يا سيدى ، ولكنى أوثرُ أن تكون لى ثياب حقيرة ، وبيت حقير ، وأنا أقول : هذه الأشياء لى . . . عَلَى أن أتمتَّع بخير من ذلك كله ممَّا يَملكهُ ويَملكُنى معه رجل آخر اسمه — سيِّدى — » . . ! ! !

* * *

وبعد ، فهذه المأساةُ ، أيَّانَ مُرْساها . . ؟

وكيف ستجد حلَّها ومصيرها . . ؟

لِنمض مع المؤلِّفة :

ها هو ذا « توم » يعانى آلامه المبرِّحة التى أصابه بها تعذيب بالغ الوحشية ، أنزله بجسده الطاهر الوهْنان سوط سيده « ليكرى » . . هذا السيد الذى رفض « توم » أن يغتا

والفرصة مُواتِية .. هذا السيد الذى أجلُّ فضائله — النذالةَ . . وأهون رذائله الوحشية . . ! !

ها هو ذا العمّ « توم » الوديع ، الطيب ، المؤمن ، الإنسان ، يُعالِج سكرات الموت فى هدوء وصَبْر .

وبينما يتهيأ جفناهُ ليُسْبِلا إلى الأبد ، إذا شاب مُهَنَّد ، قد جاء يركُضُ بجواده . . جاء من بلد بعيد يبحث عن « توم » الذى طالما حملَه على صدره وليداً ، وطِفلا . .

ويتهالك الفتى على الجُثمان المحتضر المُودِّع ، وهو يَصرخ :

— « توم . . توم ، لا تَمُت يا توم . . ! !

« لقد جئتُ لأُحَرِّرَك ، وأعود بك إلى كُوخِك القديم . .

« توم . . توم . . لا تَمُتَ . . سأشتريك يا توم . » ! !

ويجيب « توم » بآخر كلماته فى مثل هَمْس القديسينَ :

— « شكراً لك . ، لقد جئتَ متأخراً يا ولدى . .

« إن الربَّ قد اشترانى » . . ! !

أجَل ، إن الله قد اشتراه ، واشترى معه جميع الرقيق .

ولسوف يُبارك الله الضمير الإنسانى فى ضربته الماحقة التى

سَيُنزِلها بالمجرمين حُماة الرق وتُجّاره . .

وإذا لم يكن من الحرب بُدّ ، فلتكن الحرب

وينزع من بين صفوف البشرية ذات يوم ، وبعد ظهور قصة « كوخ العم توم » ببضع سنوات . رجل كضياء الفجر ، يحكى بهاء الصدق وصمود الحق . . ويعقد باسم الله الصفقة المباركة التى سيُحرر بها جميع الأرقاء . .

هذه الصفقة التى تنبأ بها « توم » ورُوحه تفيض وتصعد إلى بارئها قائلا : — إن الربّ قد اشترانى » . .

وكان « إبراهام لنكولن » . هو ذلك المحرر العظيم .

* * *

هكذا كان عصر العقل ، عصرَ الإنسان ، ففيه تحررت المعرفة من كل معوقاتها ، ونمت نموا سريعا وهائلا ،

وبدأت تغزو فى توفيق عظيم كل المجهول

ليس ذلك فحسب . . بل وإن ذلك كله تمّ ويتمّ لحساب التقدم الإنسانى والمصير الإنسانى

فقُوى الذهن وطاقات الفكر جميعها مُسخّرات لكشف

مصادر مستمرة للثراء الإنسانى بكل صُنوفه المادية ، والعلمية ؟
والرُّوحية

والضمير يقظ لكل التّناقضات التى تصاحب زحف
التقدم الحثيث

وهو فى موازنة مستمرة بين قوى الجذْب والدّفع فى هذا
التقدم المُطّرد

فمع ثورات التحرير فى بداياتها ، رَكّزَ الضمير على
حق الفرد تركيزاً أميناً ، ووضَع كل النظم والقوانين فى خدمة
الحرية الفردية . . ذلك أن البشرية كانت ترزح تحت
سيطرة طغيان متعدد الأزياء دغدغ كثيراً من صلابتها ،
وأذاب كثيرا من شخصيتها ، فلم يكن للحرية معنى حين
جاءت ، لو أنها تخطّت الوحدة الأولى فى البناء البشرى ،
مُتَمَثِّلَة فى الفرد

ولكن حين يتقادم العهد ، ويتحول مبدأ الحرية
الفردية فى أيدى أساتذة الدهاء والمغامرة إلى امتياز خاص تَنْعم
به قِلّة من المحتكرين والحاكمين ، يُلقى الضمير بثَقله فى

الجانب الآخر ، فيسارع الفكر إلى تلبية ندائه ، ويعيد التوازن إلى القيم المضطربة .

ليست الحرية ، أن تتخم قلة بجوع الكثرة ..

وليست أن تمتلىء السماء بدخان المصانع مكفنة به أنفاس الكادحين ، وعافيتهم ، وأرواحهم ..!!

وليست أن نعود تجارة الرقيق فى أزياء تنكرية ، ويسيطر سادة المال وأرباب المصانع والأرض على حركة الحياة .

ليست الحرية شيئا من ذلك .. وإذا انزلقت قوى الشر بها نحو هذه المهاوى ، فلا بد إذن من نذير جديد .

ويجىء النذير .. موكب من دعاة الاشتراكية تنتهى أمانيه وأحلامه عند « ماركس » الذى يحول الأمانى إلى حقوق ، والأحلام إلى فلسفة ونظام .

لقد اكتشف — ماركس — المنطق التاريخى ، الذى يجعل الاشتراكية ميقاتا وموعدا فى مسار البشر ورحلة الحياة .. وصاغ فلسفته المقاتلة التى حققت غرضها التاريخى ، فدفعت بالكادحين إلى مكانهم الحق فى الصفوف الأمامية ، وهزت الأوضاع الاقتصادية فى العالم كله هزات هائلة أسقطت عنها

الكثير من خَبَثِها وأنانيّتها ، ووضعت الاشتراكية كفلسفة ، ونظام ، وحركة — فى مكانها من الحياة الإنسانية .

بيد أنها خلالَ صياغتها كفلسفة ، وخلال إنجازها كنظام وتطبيق تكشفت حاجتها المُلِحّة إلى إعادة النظر فى موقفها من الروح الإنسانى الذى تجاهلت احتياجاته ، أو لم تتجاهلها ولكنها أدخلتها كوحدة حسابية فى عمليات الإنتاج ، والتوزيع ، وفائض القيمة ..!!!

وهكذا صارت الماركسية التى جاءت — يوم جاءت — كنذير للذين اتخذوا من حقوق الإنسان صفقة يقامرون بها فى سبيل جشعهم الوبيل .. نقول صارت « الماركسية » تبدو وكأنها بحاجة إلى نذير يُصَحِّحُ موقفها من حرية الفكر ، والقول ، والضمير

والضمير الإنسانى كشأنه دائما لايدَعُ السيئات تلتهم الحَسنات ، والأخطاء تأكل المزايا .. ومن ثَمَّ فقد أرسل ألسِنته المفكرة فى كل مكان تعيد إلى حرية الضمير والتفكير والإرادة قداسَتَها ، وتشير إلى الآفاق الجديدة التى ستعثر فيها المسألة الإنسانية كلها على تكامُلِها .فلا يتحقق العدل فى غيابه

الحرية .. ولا تتحقق الحرية فى غياب العَدْل . . بل تتشكَّل منهما معاً ، وعلى أوسع الآماد وأحْفَلِها بالتوفيق . جميع الحياة الناجحة لبنى الإنسان

* * *

ويُواصِلُ الضمير دَعْم حقوق الإنسان ، فيُتابع خَوْض المعارك مع الطَّاغُوت الذى تَئِنُّ تحت قدميه إرادة الحياة .. ذلكم هو الاستعمار .

إنه الابن الشرعى لقوى الاحتكار والاستغلال، ومن ثَمَّ فهو يحميها ويبذل جهوده المستميتة ليطيل بقاءها .

وهو الذى فى سبيل بحثه عن الأسواق وامتلاكه منابع الثروات يَشُنُّ الحروب الظالمة والفاتكة ويحتجز حريات الشعوب

وهو إذْ يستمد وجوده وبقاءه من كل ضلالات الحياة وفسادها ، فإنه يعمل دائماً ودائباً ضد قِيَمِها الخيِّرة فينصر الخديعة على الوضوح . . وينصر الكذب عَلى الصدق . .

ولا يرى فى الحرية إلا صفقة يُساوِم بها وعلَيها . . يُؤمن ببعضها ويكفُرُ بأكثرها . . يُبيحُها هنا ، ويُحرِّمُها هناك . .

ومن ثَمَّ لم يجد الضمير الإنسانى بُدا من أن يجنِّد كل طاقات البشر ليلقى بها فى معركة فاصلة ضِدَّ هذا الخصْم المُبين

وهكذا واصلَتْ ثورات الحرية انطلاقاتها منتصرة ظافرة. حتى لم يعد فى طريقها إلاَّ أهْوَنه وأقلّه.

* * *

ويُشارف عصر العقل قمّة مُهمته ومَسعاه بإرسال سفرائه إلى الفضاء والمجهول.

إن كل التهويمات التى حاول الفكر من قديم أن يتعرف بها إلى الكون ويُنجزَ بها توصيات الضمير الإنسانى بإنشاء علاقات وطيدة وصداقات نافعة مع الكون.. بكواكبه ونجومه..

تلك التهويمات التى جاءت مع الحدْس القديم.. وتلك الإيماءات الذكية المُباشِرة التى جاءت مع الدين.. هذه وتلك، تحوَّلت فى عصر العقل على يد « اينشتاين » ورفاقه إلى نظريات وقوانين ثم إلى صواريخ تحمل إلى الفضاء بكل أسراره، لا حدْسَ الإنسان وظنونَه.. بل علمه، وذكاءه وقدرته ويقينه

إن هذه الصواريخ عابرة الفضاء والكواكب ، لَتترُكُ في كل مكان تجتازُه أوراق اعتمادها كسفير دائم لـ « أُمَّة الأرض » وإرادة الإنسان .. !!

* * *

تُرى ، هل يظل الذكاء الإنساني بعد وثبته العاتية والمعجزة هذه — على وَلائه للضمير .. ؟ أم هو في مُروقه المذهل من الأرض إلى الكواكب ، يمرُقُ أيضا من المسئوليات التي لا يفتأ يُذكره الضمير بها ويدعوه إليها .. ؟

في هذا المأزق وحده تتمثل اليوم مشكلة الإنسان

ولقد كان الضمير صادق الحس بهذه المشكلة ، فراح يلقاها في أول الطريق ، ويُنشىء لها عصرا جديداً يحمل نِداءه ويحمى رَجاءه

فِي عَصرِ غَانْدِي .. وَالذَّرَّة ..

سار العلم يقطع الطريق وثبـا . .

وجاء « جاليليو » ، و « نيوتن » ، و « دارون » ، و « فرويد » ، و « هرشل » ، و « بريستلى » ، و « دايفى » ، و « فراداى » ، و « مكسويل » ، و « ماركونى »

وجاء « دالتن » ، و « منديليف » ، « وكورى » ، و « طمسن » ، و « موزلى »

جاءوا جميعاً وعشرات مثلهم ، ونهضوا جميعاً فوق أكتاف الذين سبقوهم فى الحضارات القديمة ، ثم فى بلاد الإغريق العظيمة ، ثم فى الحضارة الإسلامية المزدهرة . .

وساروا على الدرب الطويل ، يحملون المشاعل نفسها . . ولكن بقلوب أجرأ ، وخبرات أعظم ، وذكاء أكثر مضاء ، وعزيمة أشد تصميما وإصراراً

وحديث « الذرة » الذى بدأ مع الفيلسوف اليونانى « ليوسبس » ، ثم نما واتسع مع « ديمقريطس » ، و « أبيقور » ، ثم نظمه « لوكريتيس » الرومانى فى ستة دواوين من الشعر ! ! ثم أخذ طابعاً علمياً وجديدا على يد « دالتن » فى أوائل القرن

التاسع عشر ، ورفاقه الذين وفدوا بعده

هذا الحديث عن الذَّرَّة ، ظلّ يتنقّل فى أصلاب العقول حتى وفَد على الحياة ذات يوم رجل عجيب اسمه « اينشتاين » فقال الكلمة الأخيرة التى أطلقت العُنفوان الذّرّىّ من مَكمنه .

فى أى عام وُلد « اينشتاين » . . ؟؟

وهل يعنينا تاريخ مولده كثيراً . . ؟؟

أجل . . إذن فلنعرف أنه ولد عام — ١٨٧٩ —

وُلِد الرجل الذى سيكشف أعظم حقائق العلم اليوم ، وربُّما فى كل يوم . . !

وُلِد الذى ستبوح له « الذَّرَّة » بكلمة السِّر ، فيفُض آخر مَغاليقها . . ويخط بضعة رموز على ورقة بيضاء ، فتتحوّل هذه الرموز إلى طاقة تناهت فى رَهبتها وخطرها . . ! ولكن انظروا . .

فقبل أن يُولَد هذا الرجل بعشرة أعوام تماما ، أى فى عام — ١٨٦٩ — ، وُلِد رجل من طراز آخر اسمه « غاندى » . . .

أيّةُ حكمة إلهية عظمى . . ؟ !

وأى اتفاق سعيد هذا . . ؟ !

قبل أن يجىء الرجل الذى سيطلق المارد الرهيب ، جاء

الرجل الذى سيضع البلسم العجيب . . !!

قبل أن يجىء الرجل الذى أطلق طاقة « الذرّة » . . جاء الرجل الذى أطلق طاقة « المحبّة » . .

إنكم يا أهل عصر الذرّة أمام معجزة أعظم من الذرّة نفسها . . !

أجل . . فقد تحوّلت المحبّة إلى طاقة . وأنتم لاتشعرون . . !

والذين هتفوا بالمحبة وبالسلام وعاشوهما منذ آلاف السنين إلى يومنا . . بعث ولاؤهم النبيل للحبّ فى مهرجان النصر المجيد الذى هيّأه هذا الابن المبارك العظيم للحياة ولضميرها — قدّيس عصرنا . . وقدّيس العصور قاطبة — غاندى . . . !!

إن عالمنا كان ينتظره . .

وإن الضمير الإنسانى كان يبحث عن هذا الذى يستطيع أن يبنى من كل هتافات المحبة صرحا موحّدا ، ويحوّلها إلى طاقة تأتى من المعجزات بما يقنع عصراً عسير الإيمان . . ولقد وجد طلبته فى غاندى . .

إن غاندى ، هو ضمير عصرنا . . وهو الممثّل الحق للضمير الإنسانى فى أجيالنا وعالمنا الحديث كله . . !

وحين نضع « الذرّة » فى الجهة المقابلة لـ « غاندى » لانعنى بهذا أننا نضع الشرّ مُقابل الخير . . فإطلاق الطاقة الذرية خير عظيم رغم البداية البَشِعَة التى استهلّ بها العلم عصر الذرّة .

بيْد أن العلم بسيطرته على الطاقة النّووية ، وغزوه الفضاء ، قد هيّأ لناسِ عصرنا المزيدَ من الغرور ، والمزيد من الافتتان بالمادّة ، والمزيد من التجهُّم للايمان ، والمزيد من المُباراة فى التسلُّح وصناعة الدمار والعدَم

أى أن كل محاولات الفَتْك بالحياة ، عَبْر التاريخ الإنسانى كله قد بلَغ مدُّها الطاغى قمّته عندما أصْبحت الذرّة سلاحا فى يد الإنسان

فماذا كان جواب الضمير الإنسانى ..؟

كان أن اصطنع — غاندى — ليتحدّى به الضعف الإنسانى فى كل ألوانه ، وليُركِّز فيه خلاصة تجاربه ومُنتهى فضائله وسُمُوِّه ، ولِتتمثّل فيه عِند الذروة أعرق وأعمق الحاجات الإنسانية من إيمان ، ومحبّة ، وكرامة ، ووعى ، وسلام

وجاء غاندى . .

وكان أمره عجبا . .

جاء الرجل الذى سيعلم كل الناس ، والذى تعلّم من كل الناس — تعلّم من « المسيح » و « مُحمد » . . ومن « سقراط » و « بوذا »

وقرأ ا « إمرسون » ، و « ثورو » ، و « كارليل » ، و « رسكِن » و « تولستوى » حيث تأثر به كثيرا وحاكاه كثيرا

وإننا إذ نتحدث عنه . لانورخ له ، وإنما نتتبع رحلة الضمير الإنسانى من خلال الحياة المجيدة لهذا القدّيس

لقد بلغ الضمير الإنسانى قمّة رُشده ، وهو يتحرك فوق مسرح الأحداث الكبرى لعصرنا مُتقمِّصاً شخصية ابنه البار المهاتما غاندى . .

ولم يكن صدفة ولا اعتباطا أن تُعطى البشرية فى وقت واحد — غاندى ، والذرّة — بل هو تدبير مُحكَم لِقَدَرٍ عليم

إن « الذرّة » تعنى أن عصرنا قد وُضع فى يده من أسرار الكون ومفاتِح المجهول ما لمَ تعطه البشرية السالفة كلها . . فإذا وُضعت هذه الأسرار فى خدمة الظُّفر والنّاب ، فسوف تتحول الأرض ومَن عليها إلى ذكرى كئيبة

وإذا وضعت فى خدمة الضمير والعقل ، فستبلغ البشرية من ذُرَى الكمال مالا عَيْن رأت ، ولا أُذُن سَمِعَت ، ولا خطر على قلب بشر . .

فكيف — إذن — نُؤْثِر الثانية على الأولى . . ؟

كيف نضع أسرار الذَّرَّة وطاقاتها النامية المُعطية فى خدمة السلام والخير . . ؟ ؟

إن الضمير الإنسانى يجيبنا بكلمتين اثنتين . . .

« تجربة غاندى » .

فتجربة غاندى لم تكن من أجل الهند وحدها . .

وغاندى لم يكن رجُل الهند وحدها . . ومهما يَكن مصير الهند دولة وشعباً بعد رحيل غاندى عنها ، فإن تجربة المهاتما ستظل نَبْراساً للبشرية كلها . . ستظلُّ أرفع من أن تعطى دلالات قومية ضَيِّقة ، وستظل مفاهيمها وأنوارها عميمة شاملة . .

ذلك لأنها ليست من صُنْعه ، ولا من وحى بيئته وعصره . . بل هى تجربة الأنبياء والمرسلين ، والرواد والمصلحين . . تجربة الإنسانية كلها . . تجربة ضميرها القوى الشجاع منذ الايام الأولى للبشر . . منذ الأزمان البعيدة المُمْعنة فى البُعد

ولكن لأن المادَّة وحدها ، صارت مصدر تفكير هذا العصر الذى نَعيشُه ، فإن تجربة الروح التى مارسها غاندى بنجاح عظيم ، بزغَت كما لو كانت نسج وحدها

ولقد كان قدَراً عُلوِيا ، أَن يجىء هذا الرجل بتجربته فى عصر يريد ألاّ يؤمن إلا بالمحسوس إلاها للكون . . وبالقنبلة حلاًّ للنزاع . . وبالاستغلال سبيلا للتملُّك ، وبالدّمار طريقاً إلى الحياة . . وبالكبرياء آية للقوة . . وبالبغى سبيلا للسّيادة . . !!

جاء هو ، ليؤمن بالله الذى لا تُدركه الأبصار . . ، وليؤمن بالحق الذى يجب أن يكون فوق القوة . . ، ولينادى بـ « الساتيا جراها » أى « نبْـذ العنف » ويحلّ بها أشتَى المشكلات والأزمات . . ، وليمنبذَ التملُّك ، ويسير عريانا وحافيا ليُشارك الملايين من شعبه شقاءها وضناها . ، وليحمل مغزله ويصْطَحِبَ عَنزَته ، فى الوقت الذى يقود فيه أكثر من ثلاثمائة مليون هندى فى معركة من أنظف وأعظم معارك الحرية والاستقلال ، وفى الوقت الذى يعامِله سكان الكرة الأرضية كأستاذ ، وينظرون إليه فى تقديس كمعجزة . . !!!

- جاء ليحترم الحياة ويقدسها ، ليس فى الإنسان وحده . .
بل فى الـكائنات الحية جميعا

ألا فلنُصْغ للضمير الإنسانى يتحدَّث من خلاله

• — « لقد وجدتُ الحياة تنحدر فى هاوية الدمار بسبب العُنف . .

« وقلت لنفسى : لابد أن هناك بديلاً للعنف ينقذ الحياة ويسمو بها على الدَّمار

« وهـذا البديل قانون صادق يجعل الجماعة الإنسانية منسَّقة ، ويكرم مَثْوى الحياة

« وإذا ما اهتَدينا إلى هذا القانون ، فواجبنا أن نعمل به من فَوْرِنا . .

« ولقد عرفت « القانون » وجرَّبتُه فنجح أعظم نجاح . .

« ذلـكم هو المحبَّة . .

« فحيثما توجد الحروب ، وحيثما يجابهنا الخصم ؛ فالمحبَّة طريق الظَّفَر . .

« ولقد ظهرت آثار هذا القانون فى الهند على أوسع مدًى . .

« واستُ أزعُم أن مبدأ « اللاَّعُنف » قد نفذ إلى أفئدة الثلاثمائة مليون والستين مليونا من الهنود ..

« غير أني أؤكد أنه سيطر على النفوس أكثر من أية عقيدة أخرى ، وفي سرعة تذهِل الحاسِبين . .

« لقد علمتنا التجربة أنَّ كل مشكلة تجد حلَّها الصحيح حين نُصمِّم على أن نجعل قانون الحق ونَبْذ العُنف دستورا للحياة » ...!!

هكذا تحدث غاندى . .

إن كل مشكلة تستجيب للحل الصحيح ، مادام الرِّفق والحب والحق دستورا للحياة

ولـكن حين لا يأتي هذا الدستور بنتيجة ..؟ . حين تأبَى قُوَى الشرّ أن تذعن للحق وتستَحْيِي من الُحب . . ألا يكون السلاح يومئذ هو العلاج المناسب . . ؟ ؟

إن غاندى يبتسم لمثل هـذا التساؤل وهـذا المنطق ابتسامة رَاثٍ ومُشْفِق . .

فحَمْل السلاح عنده ليس حلاًّ على الإطلاق ، والسلاح كوسيلة لحل المشـــكلات ليس أمراً مُهْلِـكا فحسب ،

بل هو فاشل أيضا ومُخْفِقٌ كل الإخفاق

ها هو ذا يقول :

● — « لقد أعلن الرئيس وِلْسُنْ شروطه الأربعة عشر الطيبة ، ولكنه ختمها بقوله : إذا فشِلَتْ محاولاتنا لإحراز السَّلام فلنعتمد على أسلحتنا . .

« أما أنا فأقول عكس هذا تماماً . . أقول : إن الأسلحة قد فشِلَت وخسِرت وخابَتْ ، فتعالوا نبحث عن وسيلة أخرى . . تعالَوْا نجرب قُوة الحب ، وقوة الحق . . فإذا ظفرنا بنتيجة ، فآنئذ نكون قد وجدنا الطريق »

ولقد ذهب يجرب قوة الحب وقوة الحق . .

لم يجربها ليحدد على ضوء نتائج التجربة مدى ولائه للحب وللحق ؛ فولاؤه لهما وإيمانه بهما أرسخ وأعظم من أن يكونا موضوع تجربة وامتحان

إنما يُجرى التجربة لحساب البَشَرِ . . ليرى مَن له عينان ، ويسمع من له أذنان ، ويَفقَة من له قلب ، كيف يعالج الخيرُ الشرَّ ، وتقهر المحبةُ الكراهية

فالسِّلاح عند غاندى وسيلة بائدة ومُهلكة

ولقد قال « فرنكلين د . روزفلت » يوما وهو رئيس للولايات المتحدة : — « إن الالْتجاء إلى القوة فى الحرب العظمى الأولى قصُرَ عن جَذْب السلام ، فالنصر والهزيمة كانا عقيمين ، وكان من واجب العالم أن يتفهم هذا الدرس » .. !!

وكل زعماء العالم الحديث قالوا ما قاله « روزفلت » ، ولقد بُحّتْ أصواتهم جميعاً هاتفة بضرورة نزع السلاح ؛ . بينما هم يتبارَوْن جميعا فى جنون التسلُّح وصناعة الانتحار . . ! !

أما غاندى فتلك عظَمتُه . .

قال : لا خير فى العُنْف وإنما الخير فى نَبْذه ، ثم وضع هذه الحقيقة موضع التطبيق الأمين والرفيق ، وشهدت الحياة وهى سعيدة مُغتبطة ابنَها البارَّ هذا ، أشيب الرأس ، ضامِرَ البدَن .

إذا جلس ، ففوق تراب الأرض ، وإذا نام فعلى أرض الغرفة العارية ، ولا يملك من دنياه سوى ثلاثة أثواب خشنة ، ثوْبان لملْبسه ، ويتخذ من الثالث فراشا . . ويعيش على البندق والبرتقال والتمر وابن الماعز ، وكما يقدس صلاته وصيامَه ، يقدس بنفس القَدْر جلوسه إلى مغزله أربع ساعات كل يوم

شهدته الحياة فى غِبطة ، وهو يخوض مع شعبه الأعزل أعجب معارك الحرية ضدّ امبراطورية كُبْرى ، انتهت إليها يومذاك سيادة الأرض والبحر والجو

خاض المعركة بسلاحه هو . . « الساتياجراها » — « نَبْذ العُنْف »

ولم يكن يُزعجه الرصاص المنهمر فوق أبناء شعبه من القوات المستعمِرة الغاصبة ، بقدر ما كان يُزعجه أن يرى هِنْدِيًّا يرمى عدوه وقاتِلَهَ بحصاة . . !!

ذلك أن الآخرين يتصرفون وَفْق شرائع الغاب التى يحملون رواسِبَها

أما أبناء غاندى وحملة مبادئه ، فيجب أن يتصرفوا وَفْق مبادئهم هُم — هذه المبادىء التى اكتشفت قانون الحب والحق ، ونذرَت حياتها له

الآخرون ، ينتمون إلى عصور الكراهية والعُنف . . أما غاندى ومُريدوه فبُذورُ بَشرية جديدة ، وبَشائِرُ عصور الحب والتسامُح والرُّشْد . .

* * *

حين صدرت قوانين « رُولنْد » التى صادرَت حرية

القول والنشر . إثرَ انتهاء الحرب العالمية الأولى . . ثم حين أعقبتها مذبحة « أمرِتْسار » الرهيبة ، أصيب غاندى بخيبة أمل مريرة ، فهو الذى أحسن إلى بريطانيا فى الحرب ، وبذَلَ لإنجاح قضيتها كل عون رآه مشروعا وعادلا . . والآن وقد غادرت ساحة القتال منتصرة ، فإنها تُجازِيه أسوأ جزاء . .

عندئذ ، وأمام هذا الموقف الذى يُحتِّم القيام بمناهضة ومُقاوَمة ، أخرج غاندى من حقيبته أقصى وأقسى إجراء تسمح له مبادئه باتِّخاذه ، وكان « العصيان المدَنى » الذى يتمثَّل فِى عـدَم التعاون مع المستعمِرين . شريطة ألاَّ يقوم هـذا العصيان السلمى بأية بادرة من بوادر العنف وحَمْل السلاح . . لـكن تجربة غاندى المتمثلة فى الحُب ونَبذ العنف . لم تـكن قد عاشت بين شعبه يومذاك إلا قليلا ، فلم يـكد الشعب يبدأ حملة « العصيان » حتى استجاشَتْهُ الأحداث ، فتحوَّل العصيان السلمى إلى عصيان مُسَلَّح .

وعندئذ لم تشهد حياة غاندى أياما ملآى بالمرارة والحزن كذلك الأيام التى رآى فيها مبادئه تتعرض لهذه المحنة من أمته وشعبه ، فأصدر نداءه الحثيث بإرجاء حملة العصيان المدنى ، وثار

كثيرون من الشعب ضدّه ووقع ضحيّة لعدوان فريق من الغوغاء أكثر من مرة — وكان هذا أقسى كثيرا على نفسه من أى عدوان يصيبه من الإنجليز أنفسهم .. ومع هذا فما ازداد إلا إيمانا بمبدأ « نَبْذ العُنف » وأطلق يومذاك حكمته الوُثقى :

● — « إننى أوثِر الانتظار أجيالاً وأحقاباً، على أن ألتمس حرية بلادى بالعُنف والدم » . .

مبدأ عجيب حقا .. ليس فينا مَن يُطيقه .. ولكنْ غاندى لم يأت ليسير فى الدرُوب المطروقة . . بل جاء ليرتاد مِن مَجاهل التفوُّق الإنسانى ما يُحتِّم عليه الضمير ارْتيادَه . .

جاء ليُعلِّم البَشر أن المحبَّة تستطيع أن تغلِب وتفوز، لا بالنسبة له وحده .. بل ولجميع الناس أيضا

من أجل ذلك ، وحين قيل له : « إنك إنسان غير عادى . . ولا ينبغى أن تتوقع مع العالم أن يعمل مثلما تعمل » — أجاب قائلا :

● — « إننى إنسان ضعيف وفانٍ مثل بقيّة الناس . . وأنى لا أملك شيئاً خارقا . .

« وسأنبئكم بكل أملكه . .

« إنى أملك من التواضع ما يكفى للإقرار بخطىء ، والرجوع عنه . .

« وأملك ثقة مطلقة بالله ، وبجوده . .

« وأملك ولاءًا للحق وللحب لا ينضب معينه . .

« والآن دعونى أسألكم : أليس كل إنسان قادراً على أن يمتلك هذه الأشياء . . ؟؟

« إننا نكتشف كل يوم جديدا فى عالم الطبيعة ، والحياة فلماذا نستسلم لليأس والعجز ، ولا نكتشف الجديد فى روح الإنسان وإرادته . . ؟؟

« وهبوا الاستجابة لقانون الحق والحب نادرة . . فهل ثمت استحالة فى مضاعفة هذه الندرة حتى تصبح قاعدة » . . ؟؟!!

ما أعذبَ هذا المنطق ، وما أصدقه

منطق رجل واعٍ لجوهر الحق ، وجوهر الحب ، ومدرك للمرحلة الجديدة التى لا بد للبشرية أن تنتقل إليها حين يصير الحق والحب دستورها

وهو إذ يخوض معركته مع الاستعمار البريطانى فى بلده على

أساس دستوره هذا . . فإنه لا يعمل لـكى تظفر الهند باستقلالها فحسب ، بل ولـكى تنجح التجربة نجاحها الذى يجعل منها طريقاً عاماً ، للأجيال والشعوب . .

ها هو ذا يتحدث :

• — « إن اهتمامى بحرية الهند سيزول لو رأيتُها تصطنع لبلوغ حريتها وسائل العُنفَ لأن الثمرة التى تجنيها من تلك الوسائل لَن تـكون الحرية ، بل الاستعباد »

ويقول :

— « إنى لا أكافح من أجـل غاية أدنى من سـلام العـالَم كله . .

« فإذا انتصرت فى الهند حركة « نبذ العُنف » فإنها سوف تعطى معنى جديدا للبطولة ، وللحياة ذاتها ، واسمحوا لى أن أقول هذ بكل تواضُع » . .

هذا ما يريده الضمير الإنسانى إذن من غاندى

أن ينزع عن البطولة مفاهيمها الزائفة المتمثِّلة فى الغَلَب بقوة السلاح والبَغْى والشرّ

وأن يردّ إليها معناها الحق . . فالبطولة هى السموّ على الحقد ، والتفوّق على العنف والشر والباطل ، بالمحبة والخير والحق

* * *

ولما كانت الوطنية النابحة بالتعصُّب الذميم لنفسها ، عمل يحمل طابَع المقاومَة للحق والحُب ، والمقاومَة لكل محاولات التآخى المحتوم بين جميع البشَر ، فإن الضمير فى تجربة غاندى يرسُمُ من أقوال الرجل ومن سلوكه ما يزجُر هذا النوع من الوطنية الضيِّقة المُغْلَقة

● — « إننى أدعو نفسى وطنياً ، لكن وطنيتى واسعة كالكون الرحيب . . إنها تضمّ فى فؤادها سائر أمم الأرض ، وتعمل وطنيتى من أجل كرامة العالَم كله ورفاهيته

« إننى إذا كنت أنشُد فى الهند أمة قوية ، فليس لكى تَستغلّ أو تتشامخ ، بل لتكون للدول الأخرى قُدوَة ومثَلا »

ولما كان دين الأمة وثقافتها أهم الخصائص التى تحدد شخصيتها ، فقد أراد غاندى ألا تجىء انعكاسات الدين والثقافة على أُمته مُناهضة لتبعاتها الجديدة تِجاه الإخاء العالمى والمحبّة الشاملة

من أجل هذا قال :

— « إن الديانة الهندية ليست ديانة مُغلقة ، بل إنها لتتسع لعبادات جميع الأنبياء . .

« وهى تنصح كل إنسان أن يعبد الله وَفق دينه وعقيدته »

وقال عن الثقافة :

— « إن الثقافة الهندية ليست هندوسية ولا إسلامية ، ولا غير هذين .. إنما هى مزيج من الثقافات جميعاً »

● — « أريد أن تَهُبَّ رياح الثقافات من جميع البلدان وتَصدح حول بيتى فى حرية . . ولكنى أرفض أن تقتلعنى من مكانى ثقافة منها ، ذلك لأنى أرفض أن أعيش تابعاً أو عبداً » . .

إن الوحدة البشرية تستكمل خصائصها فى وَثَنِى ذلك القدّيس والزعيم

وهذه الوَحدة وإن كانت تصنع مصيرها بيديها وإرادتها إلا أنهـا لا تبلغ من الغرور ما يجعلها تكفر بوجود إلاه عادل وعظيم

● — « إنى مثل أى هندى آخر ، أومِن بالله، وبالتوحيد » .

والأديان — هـذه القُوى المادية الصامدة التى أعطت الإنسانية من الرُّشد والسُّمُو ما أعطَت ، لا تحركها فى تجربة غاندى إرادة التنافس — بل إرادة التَّكامُل

● — « إنى أومن أن التوراة ، والإنجيل ، والقرآن والزندافستا — أى كتاب زرادشت — كلهـــا ملهمة كالفيدات تماما » . .

ولقد عاش غاندى القدِّيس والعابد وَفْق هذا المبدأ

وحين اغتالته رصاصات آثمة ، كان لسانه لا يزال رطْبا بصلاته التى كان يتلو بين ترانيلها — « قل هو الله أحد — الله الصمد — لم يلد ولم يُولَدْ ولم يكن له كُفواً أحد » . .

أجل . . كان يُضمِّن صلواته دوْما آيات من التوراة . ومن الإنجيل ، ومن القرآن ، ومن كتب الديانة الهندية الفيدات . .

ألا وإنّ غاندى الذى تلقى من عصر النبوة احترام الدين ، قد تلَقّى من عصر العقل احترام الاقتناع ، فـكان يناقِش الأديان فى غير تطرُّف أو سفسطة ، ولم يكن الإيمان بالله ، ولم تـكن عادته يعنيان عنده الحياة فى صومَعة ، أو حتى نُشدان

الخلاص الشخصى .. بل كانا يعنيان تحرير الروح الإنسانى والمصير الإنسانى من كل معوقاتهما ، وبعث الفرد المتفوق على أهوائه والعامل فى خدمة الجنس البشرى على أساس من الحق والحب ..

* * *

إن بهاء التجربة الإنسانية فى « غاندى » وعظمتها ، يتمثلان فى أنه لم يكن مجرد قديس ، ولا مجرد زعيم روحى .. بل كان زعيما سياسيا يتعامل مع دول ، وحكومات ، ووزارات خارجية تعج بالحيل الشيطانية ، وكان وضعه هذا يدعوه كما يدعو سواه إلى اصطناع الوسائل الدبلوماسية التى كثيرا ما تعتمد على الكذب والمخاتلة ، ومع هذا لقد نجح نجاحا عظيما فى أن يستمسك بوسائله هو . وبلغ بها وحدها كل ما أراده لأمته من وحدة واستقلال ، وكل ما أراده للبشر من قدوة .. لكأنما أراد الضمير الإنسانى أن يقول لعصرنا من خلال تجربة غاندى هذه : — إن هذا الطراز من الزعامة السياسية هو الذى يجب أن يكون . . هو الذى جاء دوره وأهلت أيامه

إنها الزعامة التى لا تربط نضالها بالغايات العظيمة فحسب ،

بل وبالوسائل العظيمة والنظيفة ، أوّلاً ، وقَبْلا . .

إن — راجندرا برازاد — رئيس جمهورية الهند السابق يروى لنا هذه الواقعة فى كتابه :« عند قدَمَىْ غاندى »

● — « ذات يوم قدّم إلينا أحد موظفى الحكومة بصفة سِرّية نسخة من تقرير كان قد قدِّم إلى المسئولين البريطانيين فى الهند ، فحملنا التقرير إلى — غانديجى — بيْد أنَّه عرف قبل أن يقرأه الطريقة التى حصلنا بها عليه . ، فما كان منه إلا أن أبىَ الإطلاع عليه ، ورغب فى إعادته إلى الموظف الحكومى . . تلك كانت الطريقة التى علمنا بها الصدق فى العمل »

إن غاندى يعلم البشرية باسم الضمير الإنسانى أن الوسائل أهم من الغايات . . فنحن نعيش مع الوسائل أكثر مما نعيش مع الغايات . . أن الغايات قد تتحقق آخر العمر . . وقد نَرحل عن الدنيا فوْرَ تحقُّقها . . أما الوسائل فنحن نقضِى عمرنا كله أو أكثره معها ، ومن ثمّ فهى التى تصُلنا ، وتصوغُنا ، وتُنمىِّ فينا إرادة الخير إذا كانت قوية ، أو إرادة الشر إذ كانت رديئة

أجل . . أن حياتنا فى مجموعها ليست إلا تلك الوسائل التى نتوسل بها لتحقيق أهدافنا

وهذا هو الذى منح حياة غاندى ، وبالتالى منح تجربته تكاملاً فذاً وباهراً

لقد كان لغاندى رياضته الروحية الخاصة التى لا يُكلف بها إلاّ من يطيقها ويختارها ، والتى لا ينبغى أن تُتخذ مُبرراً لوصف تجربته بالمثالية المفرطة

فأسلوب غاندى فى التقشُّف ، وفى الصيام ، والصَّمت ، وفى قَصر طعامه على أنواع محددة كالبندق والتمر ولبن الماعز وامتناعه عن أكل اللحوم احتراماً لحق الحيوان فى الحياة . .

كل هذه ليست من التبعات الأساسية التى تتطلبها « تجربة غاندى » لخلق عالَم يقوم على الحق والحب

إن جوهر هذه التجربة تتمثَّل فى قدرتها من ملء الفراغ الوهمى القائم فى الحياة الإنسانية ، كيما تجد تكامُلَها

* * *

ومن ثَمّ فإن بطل عصرنا وأستاذه قد وضع أقدام البشرية والحياة فوق الطريق المستقيم

إنه لم يؤمن بفراغ بين السماء والأرض ، فآمن بالله الذى يملأ الكون بأسره

لم يؤمن بفراغ بين الأديان ، فعبد الله بها جميعا . .

لم يؤمن بفراغ بين الناس فقاوم آفة الطبقية ، وعاش بين المنبوذين . .

لم يؤمن بفراغ بين شعوب الأرض ، فنذر حياته لسلامها جميعا ، وحريتها جميعا . .

لم يؤمن بفراغ بين الوسائل والغايات ، فمارسها جميعا بنمط واحد من الاستقامة ورفعة الضمير . .

لم يؤمن بفراغ بين الزعامة والأمة،فتخلى عن أرباحه الحلال الهائلة ، وشارك الملايين تقشفها ومعاناتها ، ورفض دوما أن يفرض آراءه ، أو ينفرد من دون الناس بقرار . .

لم يؤمن بفراغ بين القانون والحكومة ، فقدس العدل والحرية . .

لم يؤمن بفراغ بين الروح والجسد فمزجهما معا فى شخصه

المهيب وصاغ منهما أعذَب تسبيحة فى عالم الطُّهر الإنسانى والكمال البشَرى . .

* * *

تلك هى تجربة الضمير الإنسانى التى تنتظم كل محاولاته الخيِّرة . .

لقد كانت الهند « بيتَ » غاندى . .

وكان العالم « وطنَه » . .

فماذا كانت رسالتُه نحو الهند وماذا كانت رسالته نحو العالم . . ؟

أما رسالته نحو الهند ، فكانت أن يُوَحِّدها ، ويُحررها . . ولقد أتم ذلك بنجاح . ! !

وأما رسالته نحو العالم ، فأن يُعطيه المثل الصحيح فى قدرة الحق والحب على حفظ الحياة وتحقيق السعادة

لا ينبغى أن يُقال هنا : لكنّ غاندى بَشيرَ الحق والحب قد ذهب صريع الكراهية والغدْر . . فالطريقة التى انتهت

بها حياة غاندى لم يكن منها بُد لكى يبلغ الدرس العظيم تمامَه.
فلكأن القدَر يقول لنا ، والضمير الإنسانى يصيح فينا :
انظروا ، إن المُحِبَّ الوَدُود الذى لم يُؤْذ طوال حياته بعوضة ..
إن خير وأعظم رجال عصركم بأسْره ، لم يَنْجُ من أذى الكراهية
التى تحملونها فى قلوبكم ، والسلاح الذى تحملونه بأيديكم ؛ فهل
بقىَ رَيْب فيما يدَّخره العُنف لكم مِن سُوء المَصير .. ؟!!!

إذا بقى فى العالَم دولة واحدة تحمل أسلحة الفناء ،
فسيكون ذلك مُبرراً أكيداً لكى تحمل كل الدول سلاحها ،
فالعُنف ينادى العُنف — ومن هُنا تُعلن « تجربة غاندى »
أن المصير الإنسانى لم يتطلّب وَحْدة العمل الإنسانى
فى شىء كما يتطلّبها ، اليوم فى نبذ العنف ، ونزع السلاح ،
وإلغاء الحرب ..

ولا أريد الآن أن أقول إن على العالم أن يختار بين
طريقين .. إذ ليس أمام العالم سوى طريق واحد هو الطريق
الذى اختاره غاندى .. الحق والحب .. حيث تختفى الحرب ،
والسلاح ، والكراهية ، والباطل ..

وهى الطريق التى سارت عليها تجربة الضمير الإنسانى ووَحْدَته منذ بدأ سَيْره من آلاف السنين .. وهو غَرض الحياة الذى يبدو من إصرار الضمير على إدراكه ، أن الله سبحانه قد خلَق البشرية لتحقيقه ...

لقد كنا حين نُصْغى لهذه الدعوة، وهى تأتينا من نبى، أومصلح قديم ، نقول : تلك مِثاليَّاتُ أزمان بعيدة ، لم يكن فيها ذرَّة ولا صواريخ .. !!

أما اليوم ، فقد أثبتت تجربة الضمير مع غاندى، أن هذا النهج لم يكن صحيحاً ، ولا ضَرورةً ، ولا ممكناً فى عصر من العصور — مثلما هو صحيح ، وضرورى ، وممكن فى عصرنا هذا

وإن تجربة « الحق والحب » هذه . فى عصر « غاندى والذَّرَّة » لَتُعتبر فى تاريخ البشرية كله نهاية مَسِير ، وبداية مَصير ..

وإن عَصْرنا لَهو الطَّليعة ..

فهل سَيُعجزه حملُ الرسالة ..

كلا ، ولو بدا ذلك مستحيلا . .

فإنه لا مستحيل على القَلْب الشجاع . .

وإن عصرا يحمل تجربة غاندى فى يُمْناه . . ويحمل أسرار الذرّة فى يُسْراه . . لهُوَ عَصرٌ ، شُجاعٌ قَلبُه . . وَثِيقٌ عَزمُه . مُبَشِّرَة أيّامُه . .